الفصل الثانى

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾

[فصلت] .

القسم الأول
وسائل الخطاب الإسلامى

منذ اللحظات الأولى لبدء دعوة الإسلام حددها الله تعالى بأمرين اثنين :

الأول: الإعداد الشخصى من العلم والإيمان والقوة والحكمة والصبر والعبادة وغير ذلك مما يتوجب على المسلم أن يعد نفسه به وله .

الثانى: الدعوة إلى الله ابتداء من الكلمة وانتهاء بالجهاد ، بالسلاح والنفس والمال .

ومن هذين المنطلقين لهذه الدعوة سار الرسول ﷺ بدعوة الناس أولا ، وتهيئة جماعة المسلمين (أمة الإسلام) ومن ثم المجاهدة بالنفس والمال وكل ما يمكن أن يحتاج لإيصال هذه الدعوة للناس جميعا ، وإزالة كافة العقبات التى يمكن أن

تحول دون ذلك .

ومن خلال مسيرة الدعوة الإسلامية من آيات التنزيل ، إلى أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وإقراره ، يشير بتوازن عجيب فى تطبيق أوامر الله تعالى لنشر هذه الدين وإخراج الناس كافة من الظلمات إلى النور .

كما أن الله تعالى قد حدد وسائل الدعوة إليه بآيات مبينات وسلوك النبي ﷺ وتطبيقه لرسالة الإسلام جاءت واضحة فى جميع المراحل التى مرت بها هذه الدعوة سواء فى العهد المكى أم العهد المدنى . سلك الصحابة رضوان الله عليهم ذات الطريق الموصل إلى مرضاة الله تعالى ومحققا إرادته فى خلقه .

الوسائل التى يطلب من الدعاة اتباعها :

الإعداد :

كانت سيرة المصطفى ﷺ قبل البعثة تعد بشكل يختلف عن الآخرين ، فمع أنه عاش فى بيئة جاهلية ونبت فيها وعاشر صاحب أهلها وعمل وتزوج وأنجب فيها ، إلا أنه لم يكن واحدا منها إطلاقا ، كانت حياته تختلف كثيرا عن الآخرين ، فقد اتخذ دربا يعتبر بعرف الناس جميعاً وعرف أهل الجاهلية أيضا درب خير وفلاح من الصدق والأمانة والعفاف والقناعة ، والزهد ، والكرم ، والعطف على الآخرين والتعامل بالحسنى وحسن التصرف فى جميع المواقع والأوقات حتى أصبح يشار إليه بالبنان ، ولقب بالصادق الأمين . ما من شك لم تكن تمنع عادات الجاهلية الازدواجية فى التصرف ، فلا يمنع مع الأمانة الغدر ومع الصدق الكذب ، ومع العفاف الطمع ، وإتيان عادات الجاهلية كلها ليست موانع فيها لمن تحلى بالصفات الأولى ، وحتى عبادة الأصنام كانت من المقومات التى تساعد على رفعة مقام الرجل فى الجاهلية.

ثم إن الرسول ﷺ قد تميز عن آخرين بعدم معرفة القراءة والكتابة ، وهذه ميزة خالدة فى صفات النبي ﷺ حتى يبقى غير خاضع لأية تأثيرات علمية

أخرى تدفعه لمعرفة أمور تترسب فى باطنه وعقله فيكون لها تمازج أو تداخل مع ما أعد له ﷻ من حفظ الأمانة التى أعدت لتناط به . إذ إن الذى سيتنزل عليه لو أنزل على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله . وبذلك فقد كانت فترة إعداد النبي لحمل الرسالة ليست عادية إطلاقا . يحمل جميع صفات الخير وينأى أو ينأى به عنها مهما حاولت نفسه أن تجره إليها فما خضع لصنم قط ، ولا شرب خمرا قط ، ولا سمع معازف ومغان قط ، وما كذب وما خان ، وما أخلف ، وما أكل حق أحد قط ، ثم إنه لم يقرأ قط ، ولم يكتب قط . فكانت بداية وسيلة الرسالة الاستفادة من كونه لم يكتب ولم يقرأ قط.

اقرأ: فهى أول الإعداد للحمل الثقيل الذى سيناط به ، وكانت امتحانا صعبا أجبر على أمر لم يكن قد عرفه خلال أربعين عاما . اقرأ .. ولا ينكر أمرا عرفه فهو صادق فيجيب : لست بقارئ .. وتتكرر القضية مرات حتى كادت روحه تخرج من بين جنبيه فقال : وما أقرأ .. فلعله بهذا يحسن التخلص من الموقف المفاجئ الذى وقع عليه ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق] وهنا تتجلى فى هذه الآيات قضية بداية الإعداد فى الخطاب الإسلامى ، فالوسيلة المثلى هى تعليم الناس أولا ، وإعدادهم بالعلم ، ومعرفة موقع المخلوق والفرق بينه وبين الخالق . ويعرف أن أصل الإنسان ليس من جواهر ولا من ذهب ، وإنما من علق ، مثله مثل تلك الحيوانات الرخوية التى تعيش فى الأرض وتتقزز منها النفس البشرية . إن هذا إعداد أيضا للداعية لأن يعرف من هو ؟ ومن أى أصل هو؟ وينتقل بعد ذلك ليعلم أن الله تعالى الذى خلقه هو الأسمى والأكرم والأعظم.

فهذا إنما يدلنا على مسلك طيب أن نصير تربية الدعاة على هذا المعنى ، فنبعدهم عن التكبر من جهة ونعرفهم بمقامهم وأصلهم ، ونعرفهم بمقدرة الخالق جل وعلا ، ثم نتابع القضية فى الإعداد بأن الله هو الذى يعلم وهو الذى حدد المعرفة للبشر بأمر منه وعلم منه .. الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم .

فالوسيلة الأولى هى التعليم ، وليس فقط أن نبين- نحن المسلمين - للناس كيف يتعلمون ، ولكن لنبين لهم ماذا يتعلمون .. ونحدد موقعهم فى الدنيا ونعرفهم بالخالق جل وعلا ، الذى خلقهم من علق ، والذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، فهذه هى الصفة الأولى المطلوبة فى الخطاب الإسلامى - الإعداد الشخصى - كما أراد الله تعالى أن يكون ، ويكون مستعدا لحمل الرسالة وحمل الأمانة .

جاءت القضية الثانية بالخطاب الإسلامى . وهى الدعوة لله تعالى فى الآيات التاليات مباشرة بعد أن أوضح الله تعالى لرسوله أسس وأسلوب الدعوة : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [العلق].

أما السبيل الثانى : فجاء بعد أن ذهب الرسول ﷺ خائفا مما لاقاه فى غار حراء ، يرتجف لما حدث ومما حدث ، ولم يتمالك أن أمر أهله أن يدثروه ، فقد سرت فى عروقه ليس قشعريرة برد أو مرض ، لكن كلمات الله تعالى التى قال الرسول ﷺ عنها : أنها حفرت فى قلبه فقد صارت أيضا مع دمه الذى لم يعد يتحمل ، فانعكس على حال النبي وجسده ﷺ .

والدثار : تدفئة الجسد وطلب الراحة له بالغطاء [١] . وتدثر : لبس الدثار وتغطى به ، والدثار : الثوب الذى يكون فوق الشعر أو الغطاء ، ودثر الطائر : أصلح عشه . دثرونى دثرونى لعله يجد لجسده راحة وتهدأ نفسه من هذا الموقف العظيم الذى لاقاه فى يومه هذا .

وجاء الأمر الثانى بعد الأول (**الإعداد**) وهو العمل والدعوة .

فكان قوله تعالى نداء قويا يسمع من تدثر تحت غطائه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١

---

(١) المعجم الوسيط : إبراهيم مصطفى وآخرون ـ المكتبة العلمية ـ طهران ١/ ٢٧٠ مادة (دثر) .

قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧ ﴾ [المدثر] .

فتتابع الأمر بإعداد النفس والدعوة لله ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر : ٢] ، والوسيلة الأهم للدعوة هى الطهارة طهارة النفس والجسد والثوب والمكان لأنها تكررت ، وارتبطت مباشرة بالإنذار أو الإخبار أو الدعوة ، والتخويف ، أو الترهيب ... إلخ ما يمكن أن يفهم من محتواها بتطهير الثوب وهجر الرجز [١] (نترك عبادة الأوثان ووسوسة الشيطان) .

يبقى الإنسان الأداة الأولى والأهم لنشر الدعوة ولإنجاحها أو فشلها ، والإنسان الذى استخلفه الله تعالى فى الأرض ، ليعبده ويقيم له الدين حنيفا مسلما خاطبه الله تعالى فى آيات كثيرة يذكره برسالته فى هذه الأرض ، قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢ ﴾ [البقرة] .

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣ ﴾ [الحجرات] .

هذه التوجيهات تصب كلها فى مساق عبادة الله تعالى والقيام بأوامره - جل جلاله - لاستكمال استخلاف الإنسان فى الأرض ، وبذلك فإن الإنسان هو الأداة الأولى والوسيلة المثلى لمثل هذا التوجه وهذا الأمر ولنشر الدين وتعميم

---

(١) الرجز : الذنب والعذاب وفى التنزيل العزيز : ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤] وعبادة الأوثان. وفى التنزيل العزيز﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ . والشرك ورجز الشيطان وسوسته وفى الكتاب العزيز:﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ [الأنفال : ١١] المعجم الوسيط ـ ج١ مادة : رجز .

الدعوة بين الناس.

والبشر ليسوا سواء فى الفهم والإدراك ، والإيمان والجحود ، والوعى والجهل والأسلوب والعفوية .. إنهم ليسوا سواء إطلاقا ، بل إن الاختلاف واضح ظاهر حتى فى ذات النفس الإنسانية كما أفاد توجيه الرسول ﷺ بقوله : « يصبح الإنسان مؤمنا ويمسى كافرا » . أو كما قال : فالاختلاف هى السمة التى يتصف بها بنو البشر الذين خلقهم الله تعالى شعوبا وقبائل ، وجعل التقوى هى الحد الفاصل فى القبول عنده : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

ولكن تبقى قضية تقرب بين الناس ، وهى قضية حصول القناعات عند مجموعات من الناس أنها من الممكن أن تؤدى عملا جماعيا فى حال قبولها بقناعة معينة ، ولقد جعلها الله عزوجل « التعارف » لتعارفوا .. هذه أيضا من أساليب الجمع بين الناس ليتعارفوا ، ليس فقط ليعرف بعضهم بعضا ، ولكن أيضا لمعرفة كل عن الآخر ما يوجب معرفة الآخر على الأول .

لا بد إذا لتحقيق هذا التعارف والتقارب من إيجاد الوسيلة المثلى لتحصيل القناعات ، وإلا فلا يمكن للإنسان الفرد - مهما أوتى من فهم وعلم - أن يقوم به لوحده ، لكن خصص الإسلام مناهج يحصل فيها التعارف فيقوم أمد الدعوة ولقد وعى المصلحون هذا الأمر فسعوا لتربية الفرد ، ومن ثم الأسرة ، ومن ثم الجماعة ، ومن ثم الدولة[١] ، فإن تبليغ الدعوة إلى الله تكون بالقول وبالعمل ، وبسيرة الداعى التى تجعله قدوة حسنة لغيره فتجذبهم إلى الإسلام .

القول :

هو الأصل فى تبليغ الدعوة إلى الله ، فالقرآن فيه معانى الدعوة إلى الله وهى قول رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على محمد ﷺ ليكون به التبليغ ، قال تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ

---

(١) راجع: حسن البنا ، رسالة : أيها الشباب « من مجموعة رسائل الإمام الشهيد » مرجع سابق .

ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦] . وكان تبليغ رسول الله ﷺ لرسالة ربه للناس بالقول . قال تعالى مخاطبا نبيه ﷺ ، وآمرا له أن يقول للناس: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [يونس: ١٠٨] ، ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨] . وكذلك أمر الله رسله أجمعين بتبليغ أقوامهم رسالة ربهم بالقول المبين ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩] .﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأعراف] فلا يجوز للداعى أن يغفل مكانة القول فى تبليغ الدعوة ، ولا أثر الكلمة الطيبة فى النفوس ، فالقول إذن : هو الوسيلة الأصلية فى إيصال الحق للناس[1] .

ومن هنا فلا بد من إعداد يكفل أن يكون قوله قادرا على جذب الناس ، وإيصال الحق لهم ، وهذا الإعداد يستوجب الصبر واختيار الميزات الطيبة فى الإنسان الداعية .

الداعى هو المكلف شرعا بالدعوة إلى الله ، فلا بد من التعريف به وبيان أدلة تكليفه ، والداعى وهو يقوم بهذا التكليف الشرعى يحتاج إلى عدة تعينه على أداء ما كلف به ، وتسهل عليه هذه المهمة العظيمة . كما يحتاج إلى نوع معين من الأخلاق الإسلامية أكثر مما يحتاجه غيره[2] .

الداعى الأول إلى الله تعالى ، بعد أن أنعم الله علينا بالإسلام هو رسولنا الكريم محمد ﷺ ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب] .

---

(١) عبد الكريم زيدان : أصول الدعوة ، مؤسسة الرسالة ، مكتبة البشائر ، ط٤ ، ١٩٩٠م ، ص٤٧١ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٥ .

وقد ذكر القرآن الكريم الخطاب إلى الرسول الكريم بأمره بالدعوة إلى الله ، والاستمرار عليها وعدم التحول عنها . فمن هذه الآيات الكريمة قوله تعالى : ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الحج] . وقوله تعالى: ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [القصص : ٨٧] . وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الرعد] . وقد ظل ﷺ يدعو إلى ربه تبارك وتعالى حتى أتاه اليقين من ربه وصار إلى جواره الكريم راضيا مرضيا ، فجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء .

الدعوة إلى الله وظيفة الرسل عليهم السلام:

والواقع أن الدعوة إلى الله هي وظيفة رسل الله جميعا . ومن أجلها بعثهم الله تعالى إلى الناس ، فكلهم بلا استثناء دعوا أقوامهم ومن أرسلوا إليهم إلى الإيمان بالله وإفراده بالعبادة على النحو الذى شرعه لهم ، قال تعالى عن نوح عليه السلام : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف] .

وقال تعالى عن هود عليه السلام : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ ﴾ [هود: ٥٠] . وعن صالح عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ ﴾ [الأعراف: ٧٣] .وعن شعيب عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ ﴾ [الأعراف: ٨٥] .

وهكذا جميع رسل الله دعوا إلى الله ، إلى عبادته وحده ، والتبرؤ من عبادة ما سواه . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ ﴾ [النحل: ٣٦] فرسل الله هم الدعاة إلى الله ، وقد اختارهم الله لحمل دعوته وتبليغها إلى الناس .

والأمة شريكة لرسولها فى وظيفة الدعوة إلى الله ، ولقد ذكرنا أن الداعى الأول إلى الله تعالى هو رسولنا ﷺ ، وذكرنا الآيات الكريمة التى تأمره عليه الصلاة والسلام بالدعوة إلى الله ، وهذه الآيات يدخل فيها المسلمون جميعا ، لأن الأصل فى خطاب الله لرسوله ﷺ دخول أمته فيه ، إلا ما استثنى . وليس من هذا أمر الله تبارك وتعالى بالدعوة إليه .

ومعنى ذلك: أن الله تعالى أكرم هذه الأمة الإسلامية ، وشرفها أن أشركها مع رسوله الكريم فى وظيفة الدعوة إليه ، وهذا التشريف والتكريم لا يستفاد فقط من الخطابات الإلهية لرسوله بالدعوة إليه كما ذكرنا ، وإنما هو صريح الآيات الكثيرة فى القرآن . قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] هذه الآية الكريمة أفادت معنيين:

الأول: خيرية هذه الأمة . **الثانى:** أنها حازت هذه الخيرية لقيامها بوظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهى وظيفة رسول الله ورسله جميعا . وأول ما يدخل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : الدعوة إلى الله وحده والبراءة من الشرك بأنواعه ، بل إن القرآن الكريم جعل من صفات المؤمنين الدعوة إلى الله ، بخلاف المنافقين الذين يصدون عن سبيل الله ويدعون إلى غيره ، قال تعالى: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾ [التوبة: ٦٧] ، ثم قال تعالى بعد ذلك:﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١] .

قال القرطبى فى تفسير هذه الآية الكريمة : فجعل الله تعالى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرقا بين المؤمنين والمنافقين ، فدل على أن أخص أوصاف المؤمنين : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ورأسها الدعاء إلى الإسلام وأضيف إلى ذلك أن الله تبارك وتعالى بهذه الآية وصف الأمة الإسلامية بما وصف به

رسول الله ﷺ. قال تعالى عن رسوله: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] (١).

والأمة مجتمعة أو متفرقة عليها مسؤولية الدعوة حسب الظرف والحال الذى هى فيه ، والأمة بسلوكها فى الدنيا حسب ما أمر الله تعالى أن تكون أمة الإسلام : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣] ، وبذلك فإن واجب الخطاب لغير المسلمين من جميع المسلمين واجب شرعى اقتداء بمن أمر به نبيهم ﷺ من ربه جل وعلا : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل: ١٢٥] ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران] وكذلك ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر : ١ -٢] وقوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾[المائدة: ٦٧].

فواجب الأمة أن تخاطب غيرها من الأمم بالتبليغ الشفهى والقولى والوسائل المتاحة ، وبالسلوك الذى تتحلى به الأمة مجتمعة أو متفرقة ، وبالتعامل مع الأمم الأخرى باعتبارها شهيدة مع الأمم الأخرى ، فقد جعلها الله تعالى شهيدة على الناس وكذلك الناس جماعات (دولاً) أو أفراداً.

---

(١) أصول الدعوة ص ٣٠٦ فما بعد .

وهنا يجب أن يتمثل الدعوة كل فرد من أفراد المسلمين ، ولكن الأفراد متفاوتون فى كثير من الصفات . إن كان خلقهم واحداً وأشكالهم متقاربة ، لكنهم مختلفو الطبائع متفاوتو السلوك ، متفاوتو التفكير ، متفاوتو الإمكانات ، متفاوتو الإيمان ، وكل عليه واجب الدعوة لله فى جماعة أو منفردا وليس كل الناس قادرين على أداء واجب الدعوة بالتساوى أو حتى التقارب ، لكن الأمر يختلف من مسلم إلى آخر فى الفهم والتأثير والعطاء والأسلوب والشخصية . وهنا فإنه لا بد أن يكون الداعية الذى يناط به أمر الدعوة إلى الله يمتاز بصفات تؤهله أن يكون الرابح دائما على أقل تقدير . وربحه قد يكون بعد خسارات كثيرة يتحملها الداعية حتى يتمكن أن يؤدى واجب الدعوة لله بنجاح ، وهذا لا يمنع بحال من الأحوال أن يتخلف الآخرون ، أو أن يعتبروا أن الدعوة فرض كفاية إن قام به البعض سقط عن الآخرين ، لكن الدعوة واجب أو فرض على جميع المسلمين ، كل لما خلق له .

ونعلم فى وقتنا هذا أن كثيرا ممن يحملون أسماء إسلامية ، أو ولدوا من أبوين مسلمين أو من أحدهما ، أو تربوا فى ظل مبادئ وأهداف وأيديولوجيات مختلفة قد نسوا حظا مما أوتوا وانقلبوا أعداء لهذه الدعوة ، بل مسفهين لرأى الدعاة ويحاربونهم فى كل مكان أو مقال.

وهنا لا بد لنا من البحث عن النخبة الصالحة التى يجب أن تناط بها هذه المسؤولية العظيمة ، حتى تؤدى بصدق وإخلاص ما ائتمنت عليه من جهة ، وما هو واجب عليها من جهة أخرى .

فالداعية - رجلاً كان أو امرأة - كبيرا كان أو صغيرا يجب عليه أن يكون عارفا بهذا الدين أولا ، يؤدى ما أمره الله مبتعدا عن مواقع الضلال أو الشبهات ، عارفا مجتمعه الذى يدعوه من حيث الاستجابة والتدين والقبول والرفض ، والصالح لهذا المجتمع والضار ، والتيارات التى تتقاذف هذا المجتمع ، والأحوال التى يعيشها ، ولعل هذا الأمر من أهم واجبات خطباء المساجد الذين يتصدون للنصح والإرشاد

والدعوة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلا بد للداعية أن يكون عالما بما عنده من أمور الشرع حلالها وحرامها ، أهدافها ومراميها ، أبعادها والقريب منها ، كذلك ترتيب أولوياته والأشياء التى يحسن تعديها عن سواها .

والداعية يدعو بسلوكه قبل قوله ، فعليه أن يكون ذا مسلك طيب كما وصفه رسول الله ﷺ ، حفظة القرآن الكريم بالحديث الشريف الذى يقول به عليه السلام : عن أبى موسى الأشعرى ﷺ ، عن النبي ﷺ قال: « إن مثل ما بعثنى به الله عز وجل من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك كمثل من فقه فى دين الله ونفعه بما بعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به »[١] .

وبهذا فإن على الداعية أن يتصف أيضا عدا ما تقدم ، بالصبر ، فإنه من أهم الصفات التى ملكها الأنبياء : الصبر ، وأكد على هذه الصفة الإسلام ، قال تعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝ ﴾ [العصر] .

وقد صبر أولو العزم من الرسل ، وجدّ الأنبياء عليهم السلام ، وصبر الدعاة وصبر المؤمنون ، حتى تمكنوا أن يؤدوا رسالتهم التى ائتمنوا عليها . يؤدونها بكل صبر وأمانة . والرسول ﷺ صبر وصابر ، وأول شهيدة فى الإسلام استشهدت صبرا واحتسابا ، فقد طلب الرسول من آل ياسر « صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة »[٢] وصبرت تحت التعذيب حتى ماتت ، فالصبر على البلاء

---

(١) البخارى (٧٩) ، ومسلم (٢٢٨٢/ ١٥) ، وأحمد (٤/ ٣٩٩) .

(٢) الحاكم فى المستدرك (٣/ ٣٨٣) ، والمطالب العالية للحافظ ابن حجر (٤٠٣٤) .

فى سبيل الله طريق النصر المؤكد ، طريق تبليغ رسالة الإسلام إلى الناس ، فكم من مواقف الصبر العظيمة التى حوتها سير الأنبياء عليهم السلام ، ومن تبعهم من المؤمنين وصبر الرسول ﷺ وصحابته وأتباعه من المسلمين .

فلا يمكن لداعية يتحلى بالعلم والإيمان ، ولا يصبر أن يؤدى رسالته التى نذر نفسه لإيصالها إلى الناس كافة .

الشجاعة: من صفات الدعاة ، الشجاعة فى الله ، وطرد الخوف من النفس إلا من الله جل وعلا ، فقد أكد الرسول ﷺ هذا المعنى بالحديث عن الحمزة رضي الله عنه عندما قال : سيد الشهداء الحمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله ، أى : أمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فكان جزاؤه القتل . وسجل دعاة الإسلام حافل بالشجعان الذين استصغروا واحتقروا الدنيا والطغاة فيها ، وما أخذت من مشاعرهم قيد أنملة ، وكانوا شجعانا بالحق ، لا يخافون فى الله لومة لائم ، والشجاعة تكون عند تحدى الظلم ، وتحدى الطغاة ، وتحدى الظالمين ، وتحدى أعداء الله ، فليكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيدا . والشجاعة غير التهور ، وغير الاندفاع بلا تعقل ولا تدبر .

وقد وصف الله تعالى من يختارهم لحمل رسالته إذا تركها آخرون فى وقت من الأوقات بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِى ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة] والشجاعة ترقى إلى أعلى درجاتها بالجهاد فى سبيل الله طلبا لمرضاته وطمعا فى رحمته ، وما وعد الله تعالى الشهداء من النعيم المقيم .

وتبقى الشهادة عنوان الداعية الذى لا يميل به الهوى لجاه أو مال ، أو يسكت عن محرمات ترتكب وهو حى ، وليس البر والتقوى فى ركون النفس والسكوت عن

الهوان والرضا بالواقع وترك الدعوة والجهاد حيث يكتب الله ما يريد .

حسن المعاملة : مع الناس من صفات الرسول ﷺ الذى مره ربه أن يتصف بها ، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص : ٧٧] ، وعلى درب رسول الله ﷺ يسير الدعاة فى التعامل مع الناس ، وهم القدوة لسمو الدين ورفعته ، وإذا خرج الداعية عن هذا الخط ، فإن حظه سيكون غير واف بل العكس فإنه يجر ويزرع الحقد والضغينة عند المدعوين . والاقتداء بالرسول ﷺ من خير الأعمال .

التحلى بالخلق الحسن: اقتداء بالرسول المصطفى ﷺ الذى مدحه ربه بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم] ، وهذه أجل شهادة من الله تعالى لنبيه ، وقال المصطفى ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . فكلما تحلى الداعية بالخلق الحسن ، كلما كان أقرب لنفوس الناس وأشد تأثيرا فيهم ، وأحسن عطاء ونفاذا فى النفوس ، وما من صاحب خلق حسن إلا وأحبه أعداؤه قبل أصدقائه.

والكرم: اسم من أسماء الله تعالى « الكريم » ومن صفات الرسول ﷺ الطيبة وسنة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، الذى علم العرب الكرم ، وكان هو صاحب الكرم الطيب ، ومدح الرسول ﷺ حاتم الطائى الذى لم يدرك الإسلام ومنَّ على قبيلته بالفداء لكرمه ولسمعته التى سارت بين الناس. والكرم : ليس إعطاء الفضل ، ولكن من طيبات ما رزق الله تعالى الإنسان ، والداعية ، وعلى قدر لا يصل حد الإسراف ، ولا يقطع ليصل حد التقتير ، فالكريم لا يضام ، وآداب المسلمين شاهد صدق على أحداث جرت للدعاة الأولين وحملة هذا الدين ، فكان الكرم أطيب صفاتهم وأحلاها .

الصدق فى القول: والعمل والتعامل أسوة بالصادق الأمين الذى حاز على حب

معاصريه قبل الدعوة وسموه الصادق الأمين . فكانت حجته بدعوته للناس إثبات صدقه عليه الصلاة والسلام بعد البعثة ، والإسلام رضى الصدق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، حتى اشتهر عن أصحاب الرسول ﷺ الذين رباهم على هذه الصفات صدقهم ، وقد ذم الله تعالى الكذب وأهله وجعلهم ممن يفسدون فى الدنيا وليس لهم فى الآخرة من نصيب ، إلا أن يهووا فى جهنم أربعين خريفا . قال تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الواقعة] أى : تجعلون محور حياتكم الكذب ، ذما لهم وتحقيرا لهم . وقال تعالى : ﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القلم] .

الأمانة: حمل عرضه الله على السموات والأرض والجبال فما حملوها : قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب] ، وارتبطت صفات النبي فى أعلاها بالصادق الأمين . وليس من شهادة فى الدنيا ندركها أكثر من أمانة رسول الله ﷺ ، حتى إن أعداءه بعد الدعوة كانوا يحملونه أماناتهم . وما نوم علىّ فى فراش رسول الله ﷺ ليلة الهجرة إلا لرد الأمانات إلى أصحابها ، وعلى الرغم من كل العداوة التى حملوها فى قلوبهم ، إلا أنهم لم يجدوا من يسمو إلى أمانته ﷺ والأمانة من صفات الداعية الصادق ومن صفات المسلم التى مدح بها عباده الصالحين عندما ذم المنافقين بعلاماتهم وآياتهم فمما قاله عن المنافق:« وإذا اؤتمن خان»[1]، وذلك ما ورد فى حديث الرسول ﷺ.

العفو عند المقدرة : فما من إنسان يحمل الحقد وينميه فى جسده وفى قلبه على الناس ، حتى الأعداء إلا وخسر عمله الذى انتدب نفسه إليه ، فكم من لحظات عفو أدت إلى مكاسب كثيرة ، وسيرة المصطفى ﷺ خير شاهد ، وعفوه عمن

---

(١) البخارى (٣٣) ، ومسلم (٥٩/١٠٧) .

عاداه وحاربه وذمه وهجاه ، وقتل أصحابه ألا تصديقا لصاحب القلب الكبير ﷺ بمقدرته على العفو . فسأل أهل مكة بعد فتحها : " ما تظنون أنى فاعل بكم قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم . فقال : " اذهبوا فأنتم الطلقاء" وعفا عنهم إلا عمن أفحش فى عدواته ﷺ ، ومع هذا فقد عفا عمن استباح دماءهم عندما جاءته شفاعة الشافعين .

الرضا بقضاء الله وقدره : فإن الشرط السادس من شروط الإيمان بالله التى لا يستقيم إيمان مؤمن إن جحد بها أو اهتزت عقيدته بها ، هو جواب الرسول ﷺ لجبريل عندما سأله : أخبرنى يا محمد عن الإيمان . قال : " أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره " [(١)]. ومحك صبر المؤمن وثباته وجلده وشجاعته إيمانه بقضاء الله وقدره ، وبأن أمر الله تعالى قائم فهو قَدر الأقدار وقضى بين عباده بالحق والعدل ، ولا مبدل لكلماته ، ولا راد لمشيئته جل وعلا . وليس الداعية يجازع أمام قضاء الله تعالى ، أو مستيئساً من رحمة الله ، فمقابلة القضاء والقدر بشجاعة وصبر وإيمان ويقين ، يعين أيضا دعاة الله تعالى على الثبات واستمرار المسيرة ، ولا يقف الداعية أمام أى مصاب جزعا خائفا مستيئسا من رحمة الله تعالى .

الطاعة: فى المنشط والمكره أمر مفروض على الداعية من الله تعالى ، بقول الله تعالى : ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] « وهى واضحة لا لبس فيها ولا غموض» أى : أولو الأمر من المسلمين الذين يحملون هم هذا الدين ، ويزودون عنه ، وليس من كتب عليه أن يحيا فى بلد ظالم حاكمها ، مظلوم أهلها ، مأخوذ عليهم بالشدائد ، فطاعة أولى الأمر بعد طاعة الرسول ﷺ ، وطاعة الله التى أوضحها فى كتابه العزيز وفيمن سبق ووصلنا صدقهم وأماناتهم .

---

(١) مسلم (٨/ ١) .

القناعة: بما أعطى الله تعالى الداعية من المال والجاه والقوة والحسب والنسب والصحة والأهل والعلم، ولا ينظر إلى ما عند الآخرين من مال وأولاد ونساء ومتاع الدنيا الفانية: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف] والقناعة تسمو بالنفس الإنسانية إلى مراتب ومواقف عالية بين الناس، وهذا السمو الذى يرفع الداعية بالقناعة، لا يشعر به إلا من أعطاه الله هذه القناعة ورضى بها، وترفع عما فى أيدى الناس.

التواضع: ذم الله تعالى المتكبرين، وكانت من نصائح لقمان لابنه، قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان].

والتواضع فى موقع المؤاخاة والمحبة بين الناس، وليس أمام المتكبرين والمتجبرين حتى لا تضيع هيبة الداعية أمام الخصوم، الذين يريدون أن يجعلوا المسلمين فى مواقع المهانة والاحتقار، ولكن المسلم فى تكبره وعلوه على خصومه هو التواضع، وأمام الله تعالى وأولى العلم والمسلمين، فإن التواضع هو نوع من الذلة ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ﴾ [المائدة: ٥٤].

وأخيرا كل صفة خيرة بالإنسان حث الإسلام عليها يجب أن يتحلى بها الداعية المسلم، ويكون رمزا لهذه الصفات الطيبة النابعة من توجهات الإسلام ومبادئه ويسعى الداعية دوما للابتعاد عن مواقع الشبهات مهما كانت، حتى لا

يجد أعداؤه ثغرة يدخلون منها إلى الطعن بسلوكه وبعقيدته وبشخصه ، فإن الشيطان لم يدع بابا إلا وولجه ، وقد وردت آيات كريمات فى تخرصات أعداء النبوات يطعنون بها سلوكهم ومعتقدهم وتوجهاتهم ، فكيف بالناس الآخرين ، ونجد الآن أن الهجمة الشرسة التى تطال دعاة الإسلام تبدأ بقائمة طويلة جدا ولا تنتهى ، وكلما خلص المسلم من واحدة ألصقوه بعشرات غيرها ، وبذلك فإن السلوك الشخصى للداعية من الوسائل الناجحة للتأثير فى الناس على اختلاف توجهاتهم .

القسم الثانى
العمل الجماعى (السلوك الجماعى)

قيلت أدبيات كثيرة حول سلوك جماعة المسلمين عند نشأتها وبعد انتشار الإسلام فى العالم ، واعترف الأعداء قبل الأصدقاء بطيب السلوك الجماعى للمسلمين الذى اختلف كلية عن سلوك الآخرين ، فاتحين أو متعاملين ، أو حتى فى أوطانهم وأبناء جلدتهم . وهذا السلوك الجماعى كان له مقدمة طيبة لدخول الناس فى دين الله أفواجا . فالكثير من الأحداث التى دونها التاريخ تنبئ عن العدل المطلق الذى سلكه المسلمون مع خصومهم قبل أصدقائهم .

وقد ميز الإسلام بالتعامل بين الناس كافة الذين عاشوا فى كنفه أو عاملوه فرق بالمعاملة بين أهل الكتاب والمشركين ، وفرق بالمعاملة بين المعاهدين والمقاتلين وفرق بالمعاملة بين الضعفاء والأقوياء ، وبذلك فقد كان سلوك المسلمين دربا للفارين من ظلم الإنسانية للولوج فى رحاب الإسلام . وكثيرا من الشعوب دخلت فى الإسلام نتيجة هذا السلوك الذى لم يعرفه العالم من قبل وما عرفه العالم من بعد إلا فى سلوك المسلمين .

وأرسل الله تعالى رسله لتعليم الناس السوك الجيد ، لكن انحراف أهل الكتاب لم يعطهم هذا الفضل ، فكم فتك اليهود بأعدائهم عندما تمكنوا منهم ، ولم يكن النصارى أقل فتكا من سواهم ، بل إنهم عاملوا أعداءهم أكثر بكثير مما عاملوهم فيه . لكن المسلمين كانوا عنوانا للعدل والوفاء والتسامح لدرجة أذهلت المؤرخين والباحثين والدارسين . قال غوستاف لوبون : « ما عرف التاريخ فاتحا أرحم من العرب » وإطلاقه كلمة العرب على المسلمين ليس تخصيصا للعرب عن سواهم .

فتح المسلمون فى زمن الوليد بن عبد الملك مناطق وأراض ما كان ليتصور الفاتحون أن يصلوها ، وقدر الله تعالى جيلا من التابعين حمل الإسلام إلى أقاصى الدنيا بعيدا عن عاصمة الخلافة ، حتى فى هذا العصر فإن هذه المسافات للمتنقل العادى تعتبر ضربا من العذاب ، وصلوا فرنسا فى الغرب ، والصين فى المشرق وأواسط إفريقيا وغرب آسيا . حتى إن فترة الفتوح تلك تعتبر ذروة الفتح فى التاريخ الإسلامى ، لم يصل بعدها إلا إلى القليل المناطق الأخرى ، سواء بالدعوة أو الحرب ، وكان مقدراً لهذه الشعوب التى دخل الإسلام أرضها أن تنقض عليه بعد فترة من الزمن ، وتستعيد ما خسرته أمام المسلمين . وتلك المناطق كانت مليئة بالشجعان كالمغول والبربر والقوط والفرنسيين وغيرهم . ومات الوليد ولم ير أحد من أبنائه الخمسة الذين كانوا يجاهدون تحت قيادة عمهم مسلمة بن عبد الملك فى جهة أواسط آسيا والشعوب التركية .

وكان الحق لتلك الشعوب أن تستعيد ما فقدته تحت ظل هذه الفتوح . لكن الله تعالى قد قيد لهذه الأمة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز الذى تولى الخلافة على أثر هذه الفتوحات مباشرة . ومع أن مدة حكمه لم تكن طويلة من جهة ، وأيضا ما تمكن أن يطبق برنامجه الإصلاحى الذى بدأه بأبناء عمه ، وأبناء عمومته ، والمقربين منه . ولكن سلوكه وتسييس الدولة على هذا السلوك فتح الله تعالى به قلوب العباد بعد أن فتح الوليد والقواد الآخرون البلاد . وبهذا السلوك الإسلامى دخلت تلك الشعوب فى الإسلام وتوجهت للجهاد

والدعوة فى بلادها بعد أن رأت عدل الإسلام والمسلمين .

والذين يحملون هم الإسلام الآن هم الحركات الإسلامية ـ فليس هناك ـ حكومات فى العالم الإسلامى تتبنى هذه الدعوة أو تحمل هذا الهم ، وبذلك فإن سلوك جماعات الدعاة على اختلاف توجهاتهم وأيديولوجياتهم ، أن يكون خطابهم للناس متوافقا مع سلوكيات طيبة ، بعيدة عن التناحر والمهاترات والتشهير وهدم ما بناه الآخرون . حتى يكون الخطاب الإسلامى للآخرين واضحا صادرا من قلوب مؤمنة وجماعات متحابة فى الله ، تعمل على نشر دعوته وتجاهد بكل الوسائل المشروعة لنشر الإسلام وتقديمه للعالم ، لا كما نقدمه الآن من زوايا التناحر والتعطيل والتشهير والانشقاقات والبرامج التى لا هم لها إلا إحباط عمل الآخرين وتسفيه أحلامهم . إن السلوك الجماعى طريق الخير لهذا الدين ، وما من شك أن أكبر العقبات التى تقف فى وجه انتشار الدعوة فى خارج العالم الإسلامى ، هو تنافر الجماعات وتناحرها وعدم سلوك طريق آداب الاختلاف ، إن الأحداث كثيرة وإن المواقف مؤلمة لما نحن فيه وخاصة عند صياغة الخطاب الإسلامى الذى يوجه للناس .

السلوك الجماعى هو الصورة الصادقة التى يقدمها دعاة الإسلام إلى العالم ، وخاصة لخصوصية التضامن الإسلامى بهم ، والعمل الإسلامى ضمن مؤسساتهم . وإذا لم نتمكن من الوصول إلى أفضلية فى هذا الخصوص فسيبقى وضعنا فى تدهور وتخاذل ، خاصة وإن أقوى القوى وأعتاها قد تمكنت من استقطاب الكثير من المسلمين ، لتجندهم رؤوس حراب لها ، لطعن الجسد الإسلامى ، وللقضاء على العمل الإسلامى الذى ينكمش على نفسه يوما بعد يوم.

ففى الشرق (عالم المسلمين) خرج الكثيرون من الإسلام إلى توجهات أخرى ، واتخذوا لهم مواقع محصنة إزاء العمل الإسلامى ورجاله ورموزه والعاملين له ، وحتى الطعن بالإسلام ذاته ، وهؤلاء فى الواقع هم الأشد نكاية وعداوة للإسلام فى ممارستهم اليومية وحياتهم وسيطرتهم على مقدرات المسلمين ضمن كيانات (تعتبر شرعية دولية الآن) محددة ، حموا ظهورهم من

جيرانهم لسلوكهم مبدئيا نفس المنهج ومبدأ عدم التدخل فى الشؤون الداخلية لكل كيان أو بلد .

كما أنهم يشيدون هذا الكيان على عمد متهاوية من حب الوطن والرئيس والأرض والأهل والنهر والجبل وتحية العلم والوقوف دقائق على أرواح الشهداء (الذين ماتوا تحت ظل هذا الاتجاه) وقد خلقوا لشعوبهم آلاف الأزمات لايخلصون من واحدة إلا والمئات الأخرى تنتظرهم ، ويضحكون على شعوبهم بانتخابات وتصويتات واستشارات نتائجها محددة سلفا لصالح هؤلاء ، وبأسلوب هزيل جدا لم يعد يفوت على أحد حتى عليهم . وقد حصنوا أنفسهم بأعتى الأسلحة ، واستخدموا أحسن العيون ، وحولوا أباطيلهم إلى حقائق باستخدام أحدث وسائل الإعلام ، وجعلوا من أنفسهم خلقا آخر غير خلق الناس والبشر ، ويبقى التعامل مع هؤلاء فيه بعض الأمل لعودة البعض منهم إلى الإسلام ، أو أنهم يحملون فى نفوسهم بذور الخير ، وأنهم قد يحرك بعض المشاعر . ولذلك تم اختيار أكثرهم من منابت حاقدة أو حاسدة ، لها جذور من الكراهية والبغضاء على هذه الأمة ، وأطالوا بقاءها بالحماية المكثفة التى لا يطالها طائل ، وارتبطوا بقوى عالمية ذات أحقاد من نوع آخر ، لكن يلتقى حقد هؤلاء مع أولئك ، وعلى الشعوب عند هذا اللقاء البلاء العظيم الذى يمارس ليل نهار فى وطن الإسلام.

وفى الغرب لم ينته وقد لا ينتهى فى المدى المنظور رفضه العداوة مع الإسلام الذى بنى وجوده على آثار حروب تتعلمها أجيال وترددها أجيال ، ويزيد فى هولها أجيال ، وما زالت متوارثة عندهم حتى يقضى الله بينهم وبيننا أمرا آخر ، فهم دائمو البحث عن أساليب جديدة لتحجيم دعوة الإسلام ورجال الإسلام ويقومون هم بأدوار يكلف أتباعهم فى الشرق بتنفيذها ، وينتظرون بأناة لدفع المكافأة على قدر ما قدم الجلادون من خدمات ، المسلمون الدعاة بجماعاتهم وبأفرادهم لا شك هم القصد .

ولا نلقى الأمور على أعنتها ، فإن ما يجرى فى العالم الإسلامى ويطال المسلمين فى فقر وتجويع وتخلف يسهم بها بعض أبناء الأمة ضد إخوانهم لممارسة طاعة اللجان المختلفة المشرفة على هذه السياسات .

والجماعات الإسلامية عليها أن تعى البعد الذى نحن بحاجة إلى التصدى له ، من خلال مخاطبة الناس بالأسلوب الذى يجرالقناعات غير محددة ببعض القضايا الجزئية ، بعيدا عن القضايا الأساسية ، التى حولت جانبا لإفهام المسلمين أن لا شىء يستحق الجهاد من أجله ، والجهاد بعد ذلك موقوف بفتاوى من علماء السلطة كى يصبح فى عداد الممنوعات فى ذاكرة الإنسان المسلم .

والسلوك الجماعى للحركات الإسلامية هو المطلوب منا الآن ، وإذا لم يكن ذلك التوافق فى هذا فعلى الأقل أن نوقف الحرب المسعورة بين المسلمين الحاضرين ومن يمكن لهم أن يقدموا خدمات فى هذا المجال . ونورث الأجيال اللاحقة إسلامنا الذى ارتضاه الله لنا بعيدا عن كل موجبات التفرقة وقضاياها اللامتناهية .

القول :

قال تعالى: ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ [البقرة] .

خلق الله الإنسان وعلمه البيان ، وفرق الألسن واللغات ، واختار العربية للتنزيل الحكيم فشرفها ورفعها وجعلها من أكثر اللغات تداولا بين المسلمين على الأقل ، وجعل القول بها دعوة للعباد إلى هذا الدين . فكانت أداة تفاهم وتعارف حتى استهان بها أبناؤها والذين فرض عليهم تعلمها من العرب والمسلمين ولكنها تبقى لغة القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم عليم ، والقول الطيب أداة ووسيلة للتبليغ وللخطاب الإسلامى للمسلمين خصوصا وللناس عموما .

يقول القرطبى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾[1] [فصلت: ٣٣] هذا توبيخ للذين تواصوا باللغو فى القرآن .

والمعنى : أى كلام أحسن من القرآن ؟ ومن أحسن قولا من الداعى إلى الله وطاعته ، وهو محمد ﷺ؟ قال ابن سيرين والسدى وابن زيد والحسن : هو رسول الله ﷺ . وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله ، هذا حبيب الله . هذا ولى الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله أجاب الله فى دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه .

وقالت عائشة رضى الله عنها وعكرمة وقيس بن أبى حازم ومجاهد : نزلت فى المؤذنين ، والأول أصح .

وقول ثالث أحسنها وهو : قال الحسن : هذه الآية عامة فى كل من دعا إلى الله . وكذا قال قيس بن أبى حازم ، قال : نزلت فى كل مؤمن . قال : ومعنى : « وعمل صالحا » الصلاة بين الأذان والإقامة . وقال أبو أمامة ، قال : صلى ركعتين بين الأذان والإقامة . وقال عكرمة : وعمل صالحا : صلى وصام . وقال الكلبى : أدى الفرائض .

وفى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت] ، أى : قريب صديق . قال مقاتل : نزلت فى أبى سفيان بن حرب ، كان مؤذيا للنبى ﷺ ، فصار له وليا بعد أن كان عدوا بالمصاهرة التى وقعت بينه وبين النبي ﷺ ، فصار وليا فى الإسلام حميما بالقرابة . وقيل: هذه الآية نزلت فى أبى جهل بن هشام . كان يؤذى النبي ﷺ ، فأمره الله تعالى بالصبر عليه والصفح عنه ، ذكره الماوردى . والأول ذكره الثعلبى والقشيرى وهو أظهر لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت] وقيل : كان هذا قبل

---

(١) وردت الآية فى مقدمة الفصل .

الأمر بالقتال . قال ابن عباس : أمره الله تعالى فى هذه الآية بالصبر عند الغضب والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة . فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم . وروى أن رجلا شتم قنبرا مولى على بن أبى طالب فناداه على : يا قنبر ! دع شاتمك وآله ، ترضى الرحمن وتسخط الشيطان ، وتعاقب شاتمك ، فما عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه .

وأنشدوا :

وللكف عن شتم اللئيم تكرما أضر له من شتمه حين يشتم

وقال آخر :

وما شيء أحب إلى سفيه إذا سب الكريم من الجواب

متاركة السفيه بلا جواب أشد على السفيه من السباب

وقال محمود الوراق:

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب وإن كثرت منه لدى الجرائم

فما الناس إلا واحد من ثلاثة شريف ومشروف ومثل مقاوم

فأما الذى فوقى فأعرف قدره وأتبع فيه الحق والحق لازم

وأما الذى دونى فإن قال صنت عن إجابته عرضى وإن لام لائم

وأما الذى مثلى فإن زل أو هفا تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم

﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ [فصلت: ٣٥] يعنى: هذه الفعلة الكريمة والخصلة الشريفة ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ [فصلت: ٣٥] بكظم الغيظ واحتمال الأذى. أى : نصيب وافر من الخير . قاله ابن عباس . وقال قتادة ومجاهد : الحظ العظيم : الجنة . قال الحسن : والله ما عظم حظ قط دون الجنة . وقيل: الكناية فى:﴿ يُلَقَّىٰهَآ ﴾ [فصلت ٣٥] عن الجنة ، أى : ما يلقاها إلا الصابرون والمعنى متقارب[1] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، المجلد الثامن ، دار الكتب العلمية ، ط١٩٩٣ ، صفحة ٢٣٤ - ٢٣٧ .

خلق الله الإنسان وعلمه البيان ، وفرق الألسن واللغات ، واختار العربية للتنزيل الحكيم فشرفها ورفعها وجعلها من أكثر اللغات تداولا بين المسلمين على الأقل ، وجعل القول بها دعوة للعباد إلى هذا الدين . فكانت أداة تفاهم وتعارف حتى استهان بها أبناؤها والذين فرض عليهم تعلمها من العرب والمسلمين ولكنها تبقى لغة القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم عليم ، والقول الطيب أداة ووسيلة للتبليغ وللخطاب الإسلامى للمسلمين خصوصا وللناس عموما .

يقول القرطبى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾[1] [فصلت: ٣٣] هذا توبيخ للذين تواصوا باللغو فى القرآن .

والمعنى : أى كلام أحسن من القرآن ؟ ومن أحسن قولا من الداعى إلى الله وطاعته ، وهو محمد ﷺ؟ قال ابن سيرين والسدى وابن زيد والحسن : هو رسول الله ﷺ . وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله ، هذا حبيب الله . هذا ولى الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله أجاب الله فى دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه .

وقالت عائشة رضى الله عنها وعكرمة وقيس بن أبى حازم ومجاهد : نزلت فى المؤذنين ، والأول أصح .

وقول ثالث أحسنها وهو : قال الحسن : هذه الآية عامة فى كل من دعا إلى الله . وكذا قال قيس بن أبى حازم ، قال : نزلت فى كل مؤمن . قال : ومعنى : « وعمل صالحا » الصلاة بين الأذان والإقامة . وقال أبو أمامة ، قال : صلى ركعتين بين الأذان والإقامة . وقال عكرمة : وعمل صالحا : صلى وصام . وقال الكلبى : أدى الفرائض .

---

(١) وردت الآية فى مقدمة الفصل .

وفى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت] ، أى : قريب صديق . قال مقاتل : نزلت فى أبى سفيان بن حرب ، كان مؤذيا للنبى ﷺ ، فصار له وليا بعد أن كان عدوا بالمصاهرة التى وقعت بينه وبين النبي ﷺ ، فصار وليا فى الإسلام حميما بالقرابة . وقيل: هذه الآية نزلت فى أبى جهل بن هشام . كان يؤذى النبي ﷺ ، فأمره الله تعالى بالصبر عليه والصفح عنه ، ذكره الماوردى . والأول ذكره الثعلبى والقشيرى وهو أظهر لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت] وقيل : كان هذا قبل الأمر بالقتال . قال ابن عباس : أمره الله تعالى فى هذه الآية بالصبر عند الغضب والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة . فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم . وروى أن رجلا شتم قنبرا مولى على بن أبى طالب فناداه على : يا قنبر ! دع شاتمك وآله ، ترضى الرحمن وتسخط الشيطان ، وتعاقب شاتمك ، فما عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه .

وأنشدوا :

وللكف عن شتم اللئيم تكرما ... أضر له من شتمه حين يشتم

وقال آخر :

وما شىء أحب إلى سفيه ... إذا سب الكريم من الجواب

متاركة السفيه بلا جواب ... أشد على السفيه من السباب

وقال محمود الوراق:

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه لدى الجرائم

فما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثل مقاوم

فأما الذى فوقى فأعرف قدره ... وأتبع فيه الحق والحق لازم

وأما الذى دونى فإن قال صنت عن ... إجابته عرضى وإن لام لائم

وأما الذى مثلى فإن زل أو هفا ... تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم

﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ [فصلت: ٣٥] يعنى: هذه الفعلة الكريمة والخصلة الشريفة

ولحمتها الصبر على الأذى ورد المعروف بالمعروف والفضل بالفضل ، وإذا عدنا إلى أدبيات الإسلام ، نجد أن القول القوى (وليس السيئ) الذى استخدمه حكام المسلمين كان ردا بليغا على أوضاع سياسية وعسكرية فى ذلك الوقت .

عن النواس بن سمعان ﷺ قال: سألت النبي ﷺ عن البر والإثم ؟ فقال: «البر حسن الخلق والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»[١].

وعن وابصة بن معبد قال : جئت إلى رسول الله ﷺ أسأله عن البر والإثم ؟ فقال : « جئت تسأل عن البر والإثم ؟ » قلت : نعم ، قال : « يا وابصة استفت نفسك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى القلب ، وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » [٢].

روى الطبرانى من حديث أسود بن أصرم المحاربى ، قال : قلت : يا رسول الله أوصنى قال : « هل تملك لسانك ؟ » قلت : ما أملك إذا لم أملك لسانى ؟ قال : « فهل تملك يدك ؟ » قلت : فما أملك إذا لم أملك يدى ؟ قال : « فلا تقل بلسانك إلا معروفا ، ولا تبسط يدك إلا إلى الخير » [٣].

وقد وردت أحاديث كثيرة قالها الرسول ﷺ ؛ ليدل بها على سلاح القول فى نشر الدعوة وكسب قلوب الناس ، وإبلاغ الناس الإسلام ، فمنها على سبيل المثال :

١- عن أنس ﷺ عن النبى ﷺ : « لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يَخْزَن من لسانه » . رواه الطبرانى [٤].

---

(١) مسلم (٢٥٥٣/ ١٤) .

(٢) أحمد (٤/ ٢٢٧) ، الدارمى (٢٥٣٣)بإسناد حسن .

(٣) الطبرانى فى الكبير (١/ ٢٨١) (٨١٨) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٠٣) « إسناده حسن » .

(٤) الطبرانى فى الأوسط (٦٥٦٣) .

٢- وروى عن معاذ بن جبل ، عن النبي ﷺ قال : « إنك لن تزال سالما ما سكت ، فإذا تكلمت كتب لك أو عليك »[١].

٣- وعن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها ، يزل بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » . متفق عليه[٢].

٤- وعن أبى هريرة ﷺ ، عن النبي ﷺ قال: « إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفا فى النار » . رواه أحمد والترمذى[٣] .

٥- وعن أبى هريرة ﷺ ، عن النبي ﷺ قال : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم » . رواه البخارى[٤].

٦- وعن بلال بن الحارث قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ، ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه » . رواه أحمد والترمذى ، وقال الترمذى : حسن صحيح[٥] .

٧- وعن أم حبيبة رضى الله عنها ، عن النبي ﷺ قال : « كلام ابن آدم عليه لا له إلا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وذكر الله عزوجل »[٦].

وكان القول - وما زال وسيبقى - سبيل المؤمن إلى إيصال الدين إلى عباده . وقد روت كتب الأثر الكثير ممن حذروا من فتنة اللسان حتى ولو كان فى خير

---

(١) الطبرانى فى الكبير (٢٠/ ٧٣) (١٣٧) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٠٣) : « رواه الطبرانى بإسنادين ورجال أحدهما ثقات » .

(٢) البخارى (٦٤٧٧) ، ومسلم (٢٩٨٨/ ٤٩) .

(٣) أحمد (٢/ ٣٥٥) ، والترمذى (٢٣١٤) ، وقال : « حسن غريب ».

(٤) البخارى (٦٤٧٨) .

(٥) أحمد (٣/ ٤٦٩) ، والترمذى (٢٣١٩) .

(٦) ابن ماجه (٣٩٧٤) .

أحيانا. ولقد خطب عمر بن عبد العزيز يوما ، فرقَّ الناس وبكوا . فقطع خطبته فقيل له : لو أتممت رجونا أن ينفع الله به . فقال عمر : إن القول فتنة ، والفعل أولى بالمؤمن من القول .

وما أحسن ما قال عبيد الله بن أبى جعفر فقيه أهل مصر فى وقته . وكان أحد الحكماء : إذا كان المرء يحدث فى مجلس فأعجبه الحديث فليسكت . وإذا كان ساكتا ، فأعجبه السكوت فليحدث ، وهذا حسن ، فإن من كان كذلك كان سكوته وحديثه لمخالفة هواه وإعجابه بنفسه . ومن كان كذلك كان جديراً بتوفيق الله إياه وتسديده فى نطقه وسكوته ؛ لأن كلامه وسكوته يكون لله عز وجل[١] .

إن مما سبق فيه الحديث يعد توجيها للقول فى الدعوة ، وتوضيحا للمطلوب من الداعية أن يقول ، وفى أى وقت ومناسبة ومقام ومجلس حسن القول به ، وتكون النتائج فى صالح جماعة المسلمين . ومن هنا فإن الخطاب الإسلامى يجب أن يتميز بالخلق والفضل والبعد عن الفاحشة ، وما تعود عليه بعض الناس من سوء القول .. أو قطع الصلة مع الآخرين لمجرد المخالفة فى الرأى مع دعاة الإسلام .

الخطابة :

كانت الخطابة - وما زالت وستبقى - أساس الخطاب الإسلامى بين المسلمين وقد سن الإسلام الخطبة فى مواقع كثيرة جدا ، وارتبطت بالصلوات الجماعية ، فهى ركن من أركان هذه الصلوات مثل صلاة الجمعة ، والعيدان ، وهذه صلوات متكررة فى حياة المسلمين . الجمعة فى فريضة صلاة الجمعة كل أسبوع والعيدان مع صلاة السنة المؤكدة للعيدين : الفطر والأضحى . والخطبة

---

(١) جامع العلوم والحكم : ابن رجب الدمشقى ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة السابعة ، ١٩٩٧م .

مع المناسبات من صلوات السنن كصلاة الاستسقاء ، وغيرها ، والخطبة هى الرسالة الموجهة للجماهير فى مختلف المناسبات فى الأفراح وفى الأحزان والحرب والسلم وفى الزواج (خطبة النكاح) ، وكان النبي ﷺ أبلغ الناس فى إيصال الخطاب إليهم . وما زالت كتب الحديث والأدب تحفظ لنا خطبه عليه السلام التى تحلت بالبلاغة والفصاحة والتأثير والجد ، وكان أصحابه - رضوان الله عليهم - خطباء وبلغاء ، كان لخطبهم الدور المشهور فى تثبيت أركان الإسلام وخاصة فى الجهاد والتوجيه والإفهام .

والخطبة (لغة) : من الألوان ما فيه غبرة أو صفرة تخالطها خضرة أو حمرة .

والخطبة : الكلام المنثور يخاطب به متكلم فصيح جمعا من الناس لإقناعهم .

والخطبة : من الكتاب صدره والجمع خطب .

والخطيب : الحسن الخطبة ومن يقوم بالخطابة فى المسجد وغيره والمتحدث عن القوم[١] .

قال ابن إسحاق: ثم مضى رسول الله ﷺ على حجه ، فأرى الناس مناسكهم وأعلمهم سنن حجهم . وخطب الناس خطبته التى بين فيها ما بين فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: « أيها الناس ، اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا ، أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله . وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعا فى بنى

---

(١) المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية ، مصر ، المكتبة العلمية ، طهران ، ٢/ ٢٤٢.

ليث فقتلته هذيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا . ولكنه إن يطمع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم . فاحذروه على دينكم . أيها الناس » إلخ الخطبة [١] .

إن المنبر المفتوح للمسلمين الآن هو الخطبة - وخطبة الجمعة خاصة ، ومع محاولات الحكومات السيطرة عليها بإلجامها بوزارات الأوقاف والتحكم فى المحتوى وفى الخطيب معا ، وطرق المواضيع التى تعتبر من مؤخرات العمل الإسلامى وليس من أولوياته . لكنها قائمة فى الحدود الدنيا من التأثير . إن خطورتها تتمثل فى أن الناس يأتونها ولا يذهب الدعاة إلى الناس ، وغالبا ما يقوم بها حتى غير المتدينين من الناس . وكثير من المسلمين كما هو معروف لا يصلون إلا يوم الجمعة ، وبذلك فإن جميع الشروط المطلوبة لإيصال الخطاب الإسلامى متوفرة فى الخطبة . فلا صلاة ولا كلام ، وعلى الناس أن يستمعوا ولا يحدثوا لغطا أو أذى أو فوضى أو ضوضاء ، وهذا ما يجعل خطبة الجمعة تصل إلى السامعين بكامل محتواها.

كما أن الخطبة التى تسبق الصلاة أو تلحقها فى الجمعة والعيدين تلقى على نفوس طيبة راضية هانئة . فيكون تأثيرها طيبا إن أُحسِنَ اختيار الخطيب والموضوع . وإن الحكومات تسعى لإبعاد أبناء الحركة الإسلامية عن هذا المنبر ، لكنه لا يزال فى الكثير من أقطار المسلمين تحت تأثيرهم وسيطرتهم ، فالخطابة من أهم الوسائل التى يمكن أن تكون سبيلا طيبا لتقديم الخطاب الإسلامى إلى الناس كافة ، ويسمع الخطبة كل مؤمن وفاجر تعود أن يرتاد المسجد فى يوم الجمعة . وقد حددت سياسة الدولة الإسلامية من أول نشأتها بخطب الجمعة كبيان للناس وتوعية . وكان الرسول ﷺ وخلفاؤه إذا أرادوا أمرا من القوم نادوا

---

(١) سيرة ابن هشام ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرين ، ج٤ ، ص٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ومسلم (١٢١٨/١٤٧) .

الصلاة جامعة ، ويصلى فرضاً أو نافلة ويقدم المسؤول بيانه للناس .

ومن الميزات التى تمتاز بها الخطبة أنها تسمع العالم والجاهل والصغير والكبير والرجل والمرأة . ووسائل الخطاب الأخرى قد تكون مقتصرة على فئة معينة من الناس دون غيرها . وبعض الخطب قد غيرت مجرى حياة كثير من الناس وقدمت وأخرت ، وفى وقت من الأوقات كانت الخطبة سبيل الانتصارات الباهرة عندما يتمكن القائد من توجيه جنوده إلى الموت فى سبيل المقصد والغاية التى يريدها ، وما أجملها عندما تكون ميتة فى سبيل الله لنيل الشهادة التى رفع بها الشهيد أعلى الدرجات.

والخطبة على إطلاق اللفظ تحتاج إلى شروط كالقول حتى تعطى الفائدة منها وقد كان الاختصار والبلاغة أولى القواعد بالاتباع بالخطبة حتى تؤثر ولا يمل السامعون منها .

روى الإمام مسلم من حديث أبى وائل قال : خطبنا عمار فأوجز وأبلغ، فلما نزل قلنا : يا أبا اليقظان لقد أبلغت وأوجزت ، فلو كنت تنفست ، فقال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن طول صلاة الرجل ، وقصر خطبته مئنة من فقهه ، فأطيلوا الصلاة ، وأقصروا الخطبة ، وإن من البيان سحرا »[(١)] .

وروى أبو داود عن عمرو بن العاص أن رجلا قام يوما فأكثر القول . فقال عمرو : لو قصد فى قوله لكان خيرا له . سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لقد رأيت أو ـ أُمِرَت ـ أن أتجَّوز فى القول ، فإن الجواز فى القول هو خير »[(٢)] .

ويحسن اختيار الموضوع بالخطبة ، فقد كان رسول الله ﷺ يذكر بالنار ويذكر

---

(١) مسلم (٨٦٩/ ٤٧) ، ومئنة : أى علامة .
(٢) أبو داود (٥٠٠٨) .

بعذاب الله حتى تذرف الدموع ؛ فعن العرباض بن ساريه ﷺ قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون [١].

- وكان ﷺ يتغير حاله عند الموعظة . كما قال جابر : كان النبي ﷺ إذا خطب وذكر الساعة اشتد غضبه وعلا صوته واحمرت عيناه . كأنه منذر جيش يقول : صبحكم ومساكم[٢] .

- وفى الصحيحين عن عدى بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : اتقوا النار قال : وأشاح ، ثم قال: اتقوا النار ، ثم أعرض وأشاح ثلاثا حتى ظننا أنه ينظر إليها ، ثم قال: اتقوا النار لو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة [٣] .

- وروى الإمام أحمد من حديث عبدالله بن سلمة عن على - أو عن الزبير ابن العوام ، قال : كان رسول الله ﷺ يخطبنا ، فيذكرنا بأيام الله ، حتى نعرف ذلك فى وجهه ، وكأنه نذير قوم يصبحهم الأمر غدوة . وكان إذا كان حديث عهد بجبريل لم يتبسم ضاحكا حتى يرتفع عنه[٤] .

فإن الخطبة تشتمل على أحوال الناس وأمورهم وما أهمَّهم ؛ وتكون حول أحوالهم وما آل إليه معاشهم والخير فيهم والشر منهم أو من غيرهم . وتكون عن البلاء والرخاء نزل بهم ، وهذا الشمول يمكن أن يسد كل مجالات الخطاب الإسلامى . ويجب أن يؤكد الخطاب الإسلامى على الكثير من الأمور التى تعتبر من أولوياته ؛ وهى السعى لتحقيق الأهداف التى وردت فى هذا الخطاب

---

(١) أحمد (٤/ ١٢٦، ١٢٧) ، وأبو داود (٤٦٠٧) ، والترمذى (٢٦٧٦) ، وقال: حسن صحيح .
(٢) مسلم (٨٦٧/ ٤٣) .
(٣) البخارى (٦٠٢٣) ، ومسلم (١٠١٦/ ٦٨) .
(٤) أحمد ، (١/ ١٦٧) وقال الشيخ أحمد شاكر (١٤٣٧) : " إسناده صحيح " ، وانظر: جامع العلوم والحكم : ابن رجب الدمشقى ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، الطبعة السابعة ، ١٩٩٧ .

وكل حسب المكان والزمان الصالحين للخطاب حتى لا يكون هناك مجال للتناقض والتباعد .

والموعظة خطبة قصيرة غير مرتبطة كالخطبة بعبادة أو صلاة ، ولكنها تدخل فى باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو تذكير الناس بأمورعامة وخاصة من حياة الناس ، وتعَّود الناس الآن أن يقدموا موعظة بعد الصلوات أو بالمناسبات أو بالحفلات أو فى أى مكان فيه تجمُّع للناس يحتاج به إلى بعض التذكير هؤلاء المجتمعين .

- عن العرباض بن سارية ﷺ قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون . فقلنا : يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا . قال : « أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد ، وإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا . فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضُّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة »[1] .

- فقول العرباض وعظنا رسول الله ﷺ موعظة . وفى رواية أحمد وأبى داود والترمذى (بليغة) . وفى رواياتهم أن ذلك كان بعد صلاة الصبح . وكان النبي ﷺ كثيرا ما يعظ أصحابه فى غير الخطب الراتبة . كخطب الجمع والأعياد . وقد أمره الله تعالى بذلك فقال : ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [النساء] وقال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] . ولكنه كان لا يديم وعظهم بل يتخولهم به أحيانا ، كما فى «الصحيحين» عن أبى وائل ، قال : كان عبد الله بن مسعود يذكرنا كل يوم خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن : إنا نحب حديثك ونشتهيه ، ولوددنا أنك حدثتنا كل

---

(١) سبق تخريجه بالصفحة السابقة .

يوم . فقال : ما يمنعنى أن أحدثكم إلا كراهة أن أملكم ، إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة كراهة السآمة علينا [١] .

والبلاغة فى الموعظة مستحسنة ؛ لأنها أقرب إلى القلوب واستجلابها . والبلاغة هى التوصل إلى إفهام المعانى المقصودة . وإيصالها إلى قلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدالة عليها ، وأفصحها وأحلاها للأسماع ، وأوقعها فى القلوب ، وكان ﷺ يقصر خطبته ولا يطيلها ، بل كان يبلغ ويوجز .

وفى صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال : كنت أصلى مع الرسول ﷺ ، فكانت صلاته قصدا ، وخطبته قصدا [٢] .

العبادات فى الإسلام :

تتميز العبادات فى الإسلام بنوع من السمو والتنزيه المطلق لله تعالى ، وترفعه عن المخلوقات. والنيّة قضية ترفع العبادة مهما كانت لله تعالى وحده دون غيره وحتى إن أداءها يعتبر - أيضا - من الفضائل التى يسمو بها الإنسان عن غيره من المخلوقات ، والمسلم عن غيره من بنى البشر . والنظام الرائع الذى تحويه معالمها لا يمكن أن نجده فى عبادة أخرى من بنى البشر بما يمكن أن يقرب من فضله وعلوه .

وأداء العبادات يوقع فى نفس المدعوين الكثير من الرهبة والخشوع ، عدا ما يجب أن يكون من الداعية بحسن الأداء ومعرفة المعانى التى حوتها هذه العبادات وطرق أدائها.

وكل عمل بنية حسنة فى الإسلام عبادة ، فالطعام والشراب والتعامل واللباس والمشى والنوم وما يديم حياة الإنسان من الرياضة والتداوى ، والبعد

---

(١) البخارى (٧٠) ، ومسلم (٢٨٢١/ ٨٣) .

(٢) مسلم (٨٦٦/ ٤١ ، ٤٢) ، وجامع العلوم والحكم ٢ / ١١١ ـ ١١٢ .

عن الفواحش والمحرمات كلها عبادة ، وعدم انتهاك حرمات الله تعالى مهما كانت فى المعاملات عبادة . وصدق التعامل والأمانة والبر والعطف وصلة الأرحام والرفق بالحيوان والآداب الاجتماعية التى أقرها الإسلام ، وكذلك آداب الطريق والتعامل ، وآداب العمل فى جميع المجالات ، وحتى آداب التعامل مع أماكن الضرورات إنما هى سبيل طيب من سبل دعوة الإسلام .

والطرق التى تؤدى بها العبادات كفيلة بأن تكون رسالة إلى غير المسلمين ليروا مبلغ عظمة الإسلام فى تحديد أشكال وأحوال وسمو الطرق التى تؤدى بها.

صلاة الفرد وصلاة الجماعة كم أخذت بقلوب الكفار والمشركين ، وكثيرا ما جعلتهم يدخلون الإسلام بركوعها وسجودها وخشوعها وطرق أدائها الرتيبة التى تدخل فى القلوب الخشية والخشوع ، والصوم والزكاة والحج كلها طرق طيبة للعالم وخطاب للناس يسمو على أى خطاب فى حسن أدائها وإخلاصها لله تعالى ، وحسن الأداء عدا ما جعل الله فيها من الثواب للمسلم الذى يؤديها خالصة لوجه الله تعالى يبتغى مرضاته - جل وعلا - ونشر دينه بين الناس .

وقراءة القرآن مرتلا حسب أوامر الله تعالى : ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾ [المزمل] طريق للكثير ممن دخل الإسلام وهو يسمع مصليا يصلى فى جوف الليل أو صوتاً نديا رطباً يرتل القرآن فيأخذ ذلك بالألباب . فعلى الفاقهين من الدعاة حسن أداء العبادات فى أوقاتها وتحقيق شروطها وتحقيق الغاية التى فرضت من أجلها ؛ ألا وهى تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى واعترافا بفضل الخالق على المخلوق.

فالطهارة:

مفتاح الصلاة وشرط لصحة الصلاة . قال ﷺ : « مفتاح الصلاة الطهور ،

وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم »[١] . « والطهور شطر الإيمان »[٢] وللطهارة أهمية كبيرة فى الإسلام ، سواء أكانت حقيقية وهى طهارة الثوب والبدن ومكان الصلاة من النجاسة ، أم طهارة حكمية وهى طهارة أعضاء الوضوء من الحدث وطهارة جميع الأعضاء الظاهرة من الجنابة ؛ لأنها شرط دائم لصحة الصلاة التى تتكرر خمس مرات يوميا . وبما أن الصلاة قيام بين يدى الله تعالى ، فأداؤها بالطهارة تعظيم لله ، والحدث والجنابة وإن لم يكونا نجاسة مرئية ، فهى نجاسة معنوية توجب استقذار ما حَّل بها ، فوجودها يخل بالتعظيم وينافى مبدأ النظافة التى تتحقق بالغسل المتكرر ، فبالطهارة يتطهر الروح والجسد معا .

واهتمام الإسلام بجعل المسلم دائما طاهرا من الناحيتين المادية والمعنوية[٣] ، أكمل وأوفى دليلاً على الحرص الشديد على النقاء والصفاء ، وعلى أن الإسلام مثل أعلى للزينة والنظافة ، والحفاظ على الصحة الخاصة والعامة ، وبناء البنية الجسدية فى أصح قوام وأجمل مظهر وأقوم عماد ، ولصون البيئة والمجتمع من انتشار المرض والضعف والهزال ؛ ولأن غسل الأعضاء الظاهرة المتعرضة للغبار والأتربة والجراثيم يوميا وغسل الجسم فى أحيان متكررة عقب كل جنابة ، كفيل بحماية الإنسان من أى تلوث . وقد ثبت طبيا أن أنجع علاج وقائى للأمراض الوبائية وغيرها هو النظافة ، والوقاية خير من العلاج ، وقد امتدح الله المتطهرين فقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة] وأثنى- سبحانه - على أهل

---

(١) أبو داود (٦١) .

(٢) مسلم (٢٢٣/ ١) .

(٣) لا تنفع الطهارة الظاهرة إلا مع الطهارة الباطنة بالإخلاص لله ، والنزاهة عن الغل والغش والحقد والحسد ، وتطهير القلب مما سوى الله فى الكون فيعبده لذاته مفتقرا إليه لا لسبب نفعى .

مسجد قباء بقوله: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة] .

وعلى المسلم أن يكون بين الناس مثالا بارزا فى نظافته وطهارته الظاهرة والباطنة . قال ﷺ لجماعة من أصحابه: إنكم قادمون على إخوانكم فأصلحوا رحالكم ، وأصلحوا لباسكم ، حتى تكونوا كأنكم شامة فى الناس ، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش[1] .

والوضوء :

لغة بضم الواو : هو اسم للفعل ؛ أى : استعمال الماء فى أعضاء مخصوصة ، وهو المراد هنا مأخوذ من الوضاءة والحسن والنظافة ، يقال : وضؤ الرجل ، أى : صار وضيئا . وأما بفتح الواو فيطلق على الماء الذى يتوضأ به.

والوضوء شرعا : نظافة مخصوصة ؛ أو هو أفعال مخصوصة مفتتحة بالنية ، وهو غسل الوجه واليدين والرجلين ، ومسح الرأس ، وأوضح تعريف له هو : أنه استعمال ماء طهور فى الأعضاء الأربعة (السابقة) على صفة مخصوصة فى الشرع ، وحكمه الأصلى ، أى : المقصود أصالة للصلاة . هو الفرضية لأنه شرط لصحة الصلاة بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا

---

(١) أبو داود (٤٠٨٩)، وأحمد (٤/ ١٨٠) ، والحاكم والبيهقى عن سهل بن الحنظلية وهو حديث صحيح . د . وهبة الزحيلى : الفقه الإسلامى وأدلته ، ج١ ، ص٩٠ دار الفكر دمشق ، ط٣ ، ١٩٨٩ بتصرف .

- فقول العرباض وعظنا رسول الله ﷺ موعظة . وفى رواية أحمد وأبى داود والترمذى (بليغة) . وفى رواياتهم أن ذلك كان بعد صلاة الصبح . وكان النبي ﷺ كثيرا ما يعظ أصحابه فى غير الخطب الراتبة . كخطب الجمع والأعياد . وقد أمره الله تعالى بذلك فقال : ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [النساء] وقال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] . ولكنه كان لا يديم وعظهم بل يتخولهم به أحيانا ، كما فى «الصحيحين» عن أبى وائل ، قال : كان عبد الله بن مسعود يذكرنا كل يوم خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن : إنا نحب حديثك ونشتهيه ، ولوددنا أنك حدثتنا كل يوم . فقال : ما يمنعنى أن أحدثكم إلا كراهة أن أملكم ، إن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة كراهة السآمة علينا [١] .

والبلاغة فى الموعظة مستحسنة ؛ لأنها أقرب إلى القلوب واستجلابها . والبلاغة هى التوصل إلى إفهام المعانى المقصودة . وإيصالها إلى قلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدالة عليها ، وأفصحها وأحلاها للأسماع ، وأوقعها فى القلوب ، وكان ﷺ يقصر خطبته ولا يطيلها ، بل كان يبلغ ويوجز .

وفى صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال : كنت أصلى مع الرسول ﷺ ، فكانت صلاته قصدا ، وخطبته قصدا [٢] .

العبادات فى الإسلام :

تتميز العبادات فى الإسلام بنوع من السمو والتنزيه المطلق لله تعالى ، وترفعه عن المخلوقات. والنيّة قضية ترفع العبادة مهما كانت لله تعالى وحده دون غيره وحتى إن أداءها يعتبر - أيضا - من الفضائل التى يسمو بها الإنسان عن غيره

---

(١) البخارى (٧٠) ، ومسلم (٢٨٢١/ ٨٣) .

(٢) مسلم (٨٦٦/ ٤١ ، ٤٢) ، وجامع العلوم والحكم ٢ / ١١١ ـ ١١٢ .

الثالث : مندوب :

أ ـ التوضؤ لكل صلاة لقوله ﷺ : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم عند كل صلاة بوضوء أو مع كل وضوء سواك »[١]، ويندب تجديد الوضوء إذا كان قد أدى بالسابق صلاة لأنه نور على نور .

ب – مس الكتب الشرعية من تفسير وحديث وعقيدة وفقه ونحوها . لكن إذا كان القرآن أكثر من التفسير حرم المس .

جـ – للنوم على طهارة وعقب الاستيقاظ من النوم المبادرة للطهارة لقوله ﷺ: « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ، وقل : اللهم أسلمت نفسى إليك ، ووجهت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت »[٢] .

د – قبل غسل الجنابة ، وللجنب عند الأكل والشرب والنوم .

هـ – عند ثورة الغضب: لأن الوضوء يطفئه . روى أحمد فى مسنده: « فإذا غضب أحدكم فليتوضأ »[٣] .

و – لقراءة القرآن الكريم ، ودراسة الحديث وروايته ، ومطالعة كتب العلم الشرعى اهتماما بشأنها . وكان الإمام مالك يتوضأ ويتطهر عند إملاء الحديث عن رسول الله ﷺ تعظيما له .

ز – للأذان وللإقامة وإلقاء خطبة ولو خطبة الزواج ، وزيارة النبي ﷺ ، وللوقوف بعرفة ، وللسعى بين الصفا والمروة ؛ لأنها أماكن عبادة .

---

(١) أحمد (٢/ ٢٥٩) ، وقال الشيخ أحمد شاكر (٧٥٠٤): « إسناده صحيح » عن أبى هريرة .

(٢) البخارى (٢٤٧) ، ومسلم (٢٧١٠/ ٥٦) .

(٣) أحمد (٤/ ٢٢٦) ، وأبو داود (٤٧٨٤) .

ح - بعد ارتكاب خطيئة ... من غيبة وكذب ونميمة ونحوها ؛ لأن الحسنات تمحو السيئات ، قال ﷺ : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال: « إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة . فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط »[١].

ط - بعد قهقهة خارج الصلاة .

ى - بعد غسل ميت وحمله ، لقوله ﷺ : « من غسَّل ميتا فليغتسل ، ومن حمله فليتوضأ »[٢] .

ك - للخروج من خلاف العلماء [٣] ، كما إذا لمس امرأة ، أو لمس فرجه ببطن كفه ، أو بعد أكل لحم الجزور (لقول بعضهم للوضوء منه) ولتكون عبادته صحيحة بالاتفاق عليها استبراء لدينه .

الرابع: مكروه الوضوء على الوضوء إذا لم يصل بالوضوء الأول .

الخامس: حرام: كالوضوء بماء مغصوب ، أو ماء يتيم .

والمساجد : أفضل بقاع الأرض ، وأفضل المساجد ثلاثة : المسجد الحرام ، ومسجد النبى ﷺ بالمدينة ، والمسجد الأقصى . وأفضل المساجد عند الجمهور المسجد الحرام ، ويأتى بعد ذلك مسجد النبي ﷺ اتفاقا ، ومسجد الحى أفضل من الجامع ، وللمساجد أحكام كثيرة يراعيها الداعية ويحسن آدابها ،

---

(١) مسلم (٢٥١/ ٤١) .

(٢) أبو داود (٣١٦١) ، والترمذى (٩٩٣) وقال: « حسن » ، وابن ماجه (١٤٦٣) ، وأحمد (٢/ ٤٣٣) عن أبى هريرة .

(٣) القضايا المذكورة اختلف فيها العلماء ، الفقه الإسلامى وأدلته ، ج١ ، ص٢٠٧ - ٢١٢ بتصرف .

ذكرها الإمام النووى ، متوفى سنة ٦٧٦هـ [١] .

وورد فى فضل المساجد أحاديث كثيرة منها : " أحب البلاد إلى الله تعالى مساجدها ، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها " [٢] .

والصلاة :

حقيقة الصلاة لغة: الدعاء أو الدعاء بخير. قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣] أى: ادع لهم . وشرعا : هى أقوال وأفعال مخصوصة مفتتحة بالتكبير ، مختتمة بالتسليم. والصلاة واجبة بالكتاب والسنة والإجماع ، وهى فرض عين على كل مكلف (بالغ عاقل) ، ولكن تؤمر بها الأولاد لسبع سنين ، وتضرب عليها لعشر ، بيد لا بخشبة ، لقوله ﷺ : ((مروا صبيانكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين ، وفرقوا بينهم فى المضاجع))[٣] .

والصلاة أعظم فروض الإسلام بعد الشهادتين لحديث جابر : ((بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة))[٤] ، وقد شرعت شكرا لنعم الله تعالى الكثيرة . ولها فوائد دينية وتربوية على الصعيدين الفردى والاجتماعى .

---

(١) المجموع ، ٢/ ١٨٧ ـ ١٩٦ ، و ٤ / ٣٣ وانظر : إعلام الساجد بأحكام المساجد للزركشى ، متوفى ٧٩٤ هـ وخاصة صفحة ٣٠١ و ٤٠٧ ، حيث ذكر ١٣٧ حكما ، والقوانين الفقهية ص٤٩ ، والمغنى ٢ / ٢٣٤ ، ورد المحتار ١ / ٦١٤ ـ ٦١٩ ، وكشاف القناع ٢ / ٢٤٢ ـ ٤٣٦ .

(٢) مسلم (٦٧١/ ٢٨٨) عن أبى هريرة .

(٣) أحمد ، (٢/ ١٨٠) وصححه الشيخ أحمد شاكر (٦٦٨٩) ، وأبو داود (٤٩٥) ، والترمذى (٤٠٧) ، وقال: ((حسن صحيح)) .

(٤) مسلم (٨٢/ ١٣٤) ، وأبو داود (٤٦٧٨) ، والترمذى (٢٦١٨-٢٦٢٠)، وابن ماجه (١٠٧٨) .

غسل الوجه واليدين والرجلين ، ومسح الرأس ، وأوضح تعريف له هو : أنه استعمال ماء طهور فى الأعضاء الأربعة (السابقة) على صفة مخصوصة فى الشرع ، وحكمه الأصلى ، أى : المقصود أصالة للصلاة . هو الفرضية لأنه شرط لصحة الصلاة بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٦] وبقوله ﷺ : لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ ، وبإجماع الأمة على وجوبه ، والوضوء خمسة أنواع :

الأول : فرض :

أ – على المُحدِث إذا أراد القيام للصلاة – فرضا كانت أو نفلا – كاملة أو غير كاملة كصلاة الجنازة ، وسجدة التلاوة ، للآية السابقة: ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ [المائدة : ٦] ، ولقوله ﷺ : لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ[١] . لا تقبل صلاة بغير طهور ، ولا صدقة من غلول[٢] " .

ب – ولأجل لمس القرآن ، ولو آية مكتوبة على ورق أو حائط أو نقود لقوله

---

(١) البخارى (١٣٥) ، ومسلم (٢/٢٢٥) وأبو داود (٦٠) وأحمد (٢/٣١٨) عن أبى هريرة .

(٢) مسلم عن ابن عمر .

نفسية كبيرة ، وطمأنينة روحية وبعدا عن الغفلة التى تصرف الإنسان عن رسالته السامية الخالدة فى هذه الحياة . قال ﷺ : « حبب إلى من دنياكم : النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة »[١] . وكان ﷺ فيما رواه أحمد إذا حزبه أمر (أى: نزل به هم أو غم) قال: « أرحنا بها يا بلال »[٢] .

وفى الصلاة تدرب على حب النظام والتزام التنظيم فى الأعمال وشؤون الحياة لأدائها فى أوقات منتظمة . وبها يتعلم المرء خصال الحلم والأناة والسكينة والوقار ، ويتعود على حصر الذهن فى المفيد النافع لتركيز الانتباه فى معانى القرآن وعظمة الله تعالى ومعانى الصلاة .

كما أن الصلاة مدرسة خلقية عملية انضباطية تربى فضيلة الصدق والأمانة وتنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

ومن الفوائد الاجتماعية : إقرار العقيدة الجامعة لأفراد المجتمع ، وتقويتها فى نفوسهم ، وفى تنظيم الجماعة فى تماسكها حول هذه العقيدة ، وفيها تقوية الشعور بالجماعة ، وتنمية روابط الانتماء للأمة وتحقيق التضامن الاجتماعى ، ووحدة الفكر والجماعة التى هى بمثابة الجسد الواحد ، الذى إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى .

وفى صلاة الجماعة فوائد عميقة وكثيرة ؛ من أهمها : إعلان مظهر المساواة ، وقوة الصف الواحد ، ووحدة الكلمة ، والتدرب على الطاعة فى القضايا العامة أو المشتركة باتباع الإمام فيما يرضى الله تعالى ، والاتجاه نحو هدف واحد

---

(١) النسائى (٣٩٣٩) أحمد (٣/ ١٢٨) ، والحاكم (٢/ ١٦٠) وصححه ووافقه الذهبى .
(٢) أحمد (٥/ ٣٦٤) ، وأبو داود (٤٩٨٥).

وغاية نبيلة سامية هى الفوز برضوان الله تعالى .

كما أن بها تعارف المسلمين وتآلفهم ، وتعاونهم على البر والتقوى ، وتغذية الاهتمام بأوضاع وأحوال المسلمين العامة . ومساندة الضعيف والمريض والسجين والملاحق بتهمة والغائب عن أسرته وأولاده . ويعد المسجد والصلاة فيه مقرا لقاعدة شعبية منظمة متعاونة متآزرة . تخرج القادة ، وتدعم السلطة الشرعية وتصحح انحرافاتها وأخطاءها بالكلمة الناصحة والموعظة الحسنة ، والقول اللين ، والنقد البناء الهادف . كما جاء فى الحديث الصحيح ، قال رسول الله ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »[١] .

والصلاة تميز المسلم عن غيره فتكون طريقا للثقة والائتمان ، وبعث روح المحبة والمودة فيما بين الناس: « من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له ذمة الله وذمة رسوله ، فلا تخفروا الله فى ذمته»[٢] .

اتفق المسلمون على أن الصلاة واجبة على كل مسلم بالغ عاقل طاهر ـ أى: غير ذى حيض أو نفاس للمرأة . أو جنب ، ولا ذى جنون أو إغماء . وهى عبادة بدنية محضة لا تقبل النيابة أصلا ، فلا يصح أن يصلى أحد عن أحد كما لا يصح أن يصوم أحد عن أحد .

عن أبى حميد الساعدى : أنه قال وهو فى عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ أحدهم أبو قتادة : أنا أعلمكم بصلاة رسول الله ﷺ قالوا: ما كنت أقدم منا له صحبة ، ولا أكثرنا له إتيانا ، قال : بلى ، قالوا : فاعرض ، فقال : كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة اعتدل قائما ، ورفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه ، ثم يكبر، فإذا أراد أن يركع رفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه، ثم قال:« الله أكبر » وركع ، ثم اعتدل فلم يصوب رأسه ولم يقنع ، ووضع يديه على ركبتيه ، ثم

---

(١) البخارى (٢٤٤٦) ، ومسلم (٢٥٨٥/ ٦٥) ، عن أبى موسى الأشعرى ﷺ .
(٢) البخارى (٣٩١) .

قال: « سمع الله لمن حمده » ، ورفع يديه واعتدل حتى يرجع كل عظم فى موضعه معتدلا ، ثم هوى إلى الأرض ساجداً ، ثم قال: « الله أكبر » ، ثم ثنى رجله وقعد عليها ، واعتدل حتى يرجع كل عظم فى موضعه ، ثم نهض ، ثم صنع فى الركعة الثانية مثل ذلك ، حتى إذا قام من السجدتين كبر ورفع يديه حتى يحاذى بهما منكبيه كما صنع حين افتتح الصلاة ، ثم صنع كذلك حتى إذا كانت الركعة التى تنقضى فيها صلاته ، أخر رجله اليسرى ، وقعد على شقه متوركاً ثم سلم ، قالوا : صدقت ، هكذا صلى رسول الله ﷺ (١).

وأجمع المسلمون على أن من جحد وجوب الصلاة فهو كافر مرتد ؛ لثبوت فرضيتها بالأدلة القطعية من القرآن والسنة والإجماع ، كما بينا ، ومن تركها تكاسلا وتهاونا فهو فاسق عاصٍ إلاّ أن يكون قريب عهد بالإسلام ، أو لم يخالط المسلمين مدة يبلغه فيها وجوب الصلاة .

وترك الصلاة موجب للعقوبة الأخروية والدنيوية ، أما الأخروية فلقوله تعالى : ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ [القمر] ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون] ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم: ٥٩] .

وقال ﷺ : « من ترك الصلاة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله ورسوله »(٢) .

صفة صلاة النبي ﷺ :

هذه صفة واضحة لصلاة النبي ﷺ رواها المحدثون الثقات لتكون دائما

---

(١) البخارى (٨٢٨) مختصرا ، وأبو داود (٧٣٤) ، والترمذى (٢٦٠) ، وأحمد (٥/ ٤٢٤).

(٢) أحمد (٦/ ٤٢١) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ٢٩٨) : « رجاله رجال الصحيح ، إلا أن مكحولا لم يسمع من أم أيمن » . المصدر السابق ، ج١ ، ص٤٩٩ فما بعد .

وباختصار موضع الذكرى والأسوة الحسنة .

وفى رواية قال : كنت فى مجلس من أصحاب رسول الله ﷺ قال : اذكروا صلاته ، فقال أبو حميد ـ فذكر بعض هذا الحديث ـ فتذكر ، فإذا ركع أمكن كفيه من ركبتيه وفرَّج بين أصابعه وهصر ظهره ، غير مقنع رأسه ولا صافح نجده . وقال : إذا قعد على بطن قدمه اليسرى ، ونصب اليمنى ، فإذا كان فى الرابعة أفضى بوركه اليسرى إلى الأرض ، وأخرج قدميه من ناحية واحدة .

وفى رواية أخرى قال : إذا سجد وضع يديه غير مفترش واستقبل باطراف أصابعه القبلة[١] ، ثم رفع رأسه ـ وفى رواية قال : ثم رفع رأسه يعنى : من الركوع ـ فقال: « سمع الله لمن حمده اللهم ربنا لك الحمد » ورفع يديه .

وروى أبو داود والترمذى عن رفاعة بن رافع – ﷺ – حديثا علم فيه النبي ﷺ رجلا بدويا كيفية الصلاة حينما صلى فأخف صلاته ، فقال النبي ﷺ : « إنه لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء . فيضع الوضوء ـ يعنى : مواضعه ـ ثم يكبر ، ويحمد الله عزوجل ، ويثنى عليه ، ثم يقرأ بما شاء من القرآن . ثم يقول : الله أكبر . ثم يركع حتى تطمئن مفاصله ، ثم يرفع ، ثم يقول : سمع الله لمن حمده ، حتى يستوى قائما ، ويقول : الله أكبر ، ثم يسجد حتى تطمئن مفاصله ، ثم يقول : الله أكبر ، ويرفع رأسه حتى يستوى قاعدا . ثم يقول : الله أكبر . ثم يسجد حتى تطمئن مفاصله ، ويرفع ثانية ليكبر ، فإذا فعل ذلك تمت صلاته »[٢]

الصوم :

والصوم لغة: الإمساك والكف عن الشيء يقال: صام عن الكلام ، أى: أمسك عنه ، قال تعالى إخبارا عن مريم: ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا ﴾ [مريم : ٢٦] أى: صمتا وإمساكا عن الكلام . وقال العرب : صام النهار : إذا وقف سير الشمس وسط النهار عند الظهيرة .

---

(١) الافتراش المنهى عنه : هو أن يبسط ذراعيه فى السجود ولا يرفعهما عن الأرض .
(٢) أبو داود (٨٥٨) ، والترمذى (٣٠٢) ، وقال: « حسن ».

وشرعا: هو الإمساك نهارا عن المفطرات بنية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، أى : أن الصوم امتناع فعلى عن شهوتى البطن والفرج . وعن كل شيء حسى يدخل الجوف من دواء ونحوه ، فى زمن معين ، وهو من طلوع الفجر الثانى أى : الصادق إلى غروب الشمس . من شخص معين أهل له : وهو المسلم العاقل غير الحائض أو النفساء بنية ، وهى عزم القلب على إيجاد الفعل جزما بدون تردد لتمييز العبادة عن العادة .

وركن الصوم: الإمساك عن شهوتى البطن والفرج ، أو الإمساك عن المفطرات وزاد المالكية والشافعية ركنا آخر وهو النية ليلا .

وزمن الصوم: من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، ويؤخذ فى البلاد التى يتساوى الليل والنهار فيها . أو فى حالة طول النهار أحيانا كبلغاريا بتقدير وقت الصوم بحسب أقرب البلاد منها. ودليله قوله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [البقرة: ١٨٧] والتعبير بالخيط مجازا يعنى : بياض النهار من سواد الليل . وهذا يحصل بطلوع الفجر . قال ابن عبد البر فى قول النبي ﷺ : « إن بلالا يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم ». دليل على أن الخيط الأبيض هو الصباح ، وأن السحور لا يكون إلا قبل الفجر بالإجماع .

وفوائد الصوم كثيرة جدا من الناحيتين الروحية والمادية ، وهو طريق من طرق الخطاب الإسلامى إلى العالم للفوائد الهائلة التى يجنيها الصائم له ولمجتمعه.

فالصوم طاعة لله تعالى ، يثاب عليها المؤمن ثوابا مفتوحا لا حدود له ؛ لأنه لله - سبحانه - وتعالى ، وكرم الله واسع . وينال به رضوان الله ، واستحقاق دخول

الجنة من باب خاص أعد للصائمين يقال له : الريان[١] ، ويبعد نفسه عن عذاب الله تعالى بسبب ما قد يرتكبه من معاص . فهو كفارة للذنوب من عام لآخر . وبالطاعة يستقيم أمر المؤمن على الحق الذى شرعه الله عزوجل ؛ وذلك لأن الصوم يحقق التقوى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

والصوم مدرسة خلقية كبرى يتدرب فيها المؤمن على خصال كثيرة ، فهو جهاد للنفس ومقاومة للأهواء ، ونزغات الشيطان التى قد تلوح له ، ويتعود به الإنسان على خلق الصبر على ما قد يحرم منه ، وعلى الأهوال والشدائد التى قد يتعرض لها ، إذ يجد الطعام الشهى يطبخ أمامه ، والروائح تهيج عصارات معدته ، والماء العذب البارد يترقرق فى ناظريه فيمتنع منه ، منتظرا وقت الإذن الربانى بتناولها .

والصوم يعلم الأمانة ومراقبة الله تعالى فى السر والعلن ، إذ لا رقيب على الصائم فى امتناعه عن الطيبات إلا الله وحده .

والصوم يقوى الإرادة ويشحذ العزيمة ، ويعلم الصبر ، ويساعد على صفاء الذهن ، وتنقية الفكر ، وإلهام الآراء الثاقبة إذا تخطى الصائم مرحلة الاسترخاء وتناسى ما قد يطرأ له من عوارض الارتخاء والفتور أحيانا . قال لقمان لابنه : يا بنى : إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة .

والصوم يعلّم النظام والانضباط ؛ لأنه يجبر الصائم على تناول الطعام والشراب فى وقت واحد وموعد معين ، والصوم يشعر بوحدة المسلمين الحسية

---

(١) البخارى (١٨٩٦) ، ومسلم (١١٥٢/ ١٦٦) والترمذى (٧٦٥)عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: إن فى الجنة بابا يقال له : الريان ؛ يدخل منه الصائمون يوم القيامة . لا يدخل معهم أحد غيرهم ، يقال : أين الصائمون ، فيدخلون منه ، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد .

فى مشارق الأرض ومغاربها . فهم جميعا يصومون ويفطرون فى وقت واحد ؛ لأن ربهم واحد ولأن عبادتهم موحدة .

وينمى الصوم فى الإنسان عاطفة الرحمة والأخوة والشعور برابطة التضامن والتعاون التى تربط بين المسلمين فيما بينهم . فيدفعه إحساسه بالجوع والحاجة إلى صلة الآخرين ، والمساهمة فى القضاء على غائلة الفقر والجوع والمرض فتتقوى أواصر الروابط الاجتماعية بين الناس ، ويتعاون الكل فى معالجة الحالات المرضية فى المجتمع .

والصوم فعلا يجدد حياة الإنسان بتجدد الخلايا وطرح ما شاخ منها ، وإراحة المعدة وجهاز الهضم ، وحمية الجسد ، والتخلص من الفضلات المترسبة ، والأطعمة غير المهضومة ، والعفونات أو الرطوبات التى تتركها الأطعمة والأشربة . قال النبي ﷺ : « صوموا تصحوا »[1] . وقال طبيب العرب الحارث ابن كلدة : المعدة بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء .

والصيام جهاد للنفس ، وتخليصها مما علق بها من شوائب الدنيا وآثامها ، وكسر حدة الشهوة والأهواء وتهذيبها وضبطها فى طعامها وشرابها بدليل قول النبي ﷺ : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ؛ فإنه له وجاء »[2] . وقال الكمال ابن الهمام : الصوم ثالث أركان الإسلام بعد : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والصوم شرعه الله سبحانه وتعالى لفوائد أعظمها كونه موجبا أشياء منها: سكون النفس الأمارة ، وكسر سورتها فى الفضول المتعلقة بجميع الجوارح من العين واللسان والأذن والفرج ، فإنه به تضعف حركتها فى محسوساتها . ولذا قيل : إذا جاعت النفس شبعت جميع الأعضاء ، وإذا شبعت جاعت كلها .

---

(١) ابن السنى وأبو نعيم عن أبى هريرة .

(٢) البخارى (١٩٠٥) ، ومسلم (١٤٠٠/١) ، وأبو داود (٢٠٤٦) ، والترمذى (١٠٨٠) والنسائى(٣٢٠٩) ، وابن ماجه (١٨٤٥) ، وأحمد (١/ ٤٣٢) .عن ابن مسعود . والباءة تكاليف الزواج ، والوجاء : أى ضعف شهوة النكاح . تشبيها بقطع السيف .

ومنها : كونه موجبا للرحمة والعطف على المساكين ، فإنه لما ذاق ألم الجوع فى بعض الأوقات ذكر من هذه حاله فى جميع الأوقات ، فتسارع إليه الرقة عليه فينال بذلك ما عند الله تعالى من حسن الجزاء .

ومنها : موافقة الفقراء بتحمل ما يتحملون أحيانا ، وفى ذلك رفع حاله عند الله تعالى ، وقال فى الإيضاح : اعلم أن الصوم من أعظم أركان الدين وأوثق قوانين الشرع المتين ، قهر النفس الأمارة بالسوء وأنه مركب من أعمال القلب ومن المنع عن المأكل والمشرب والمناكحة عامة يومه ، وهو أجمل الخصال ، غير أنه أشق التكاليف على النفوس [١] ، وقد مدحه الله بآية ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

الزكاة [٢] :

والزكاة لغة : النمو والزيادة . يقال : زكا الزرع : إذا نما وزاد . وزكت النفقة : إذا بورك فيها ، وقد تطلق بمعنى الطهارة . قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩] أى : طهرها من الأدناس . ومثله قول الله - سبحانه - وتعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى : ١٤] وتطلق أحيانا على المدح ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النجم : ٣٢] الآية ، وعلى الصلاح يقال : رجل زكى ، أى : زائد الخير ، من قوم أزكياء ، وزكى القاضى الشهود : إذا بين زيادتهم بالخير وسمى المال المخرج فى الشرع : زكاة ؛ لأنه يزيد فى المخرج منه ، ويقيه الآفات ،

---

(١) حاشية ابن عابدين ، ٢ / ١٠٩ . المصدر السابق ٢ / ٥٦٦ ـ ٥٧٠ .

(٢) انظر : المجموع شرح المهذب للإمام أبى زكريا محيى الدين بن شرف النووى ـ دار الفكر ـ دمشق ٥ / ٣١٣ فما بعد .

قال تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة: ٤٣] .

وتتمثل هذه المعانى اللغوية فى قوله سبحانه: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾ [التوبة : ١٠٣] فهى تطهر مؤديها من الإثم وتنمى أجره .

والزكاة شرعا: حق يجب فى المال (وعرفها المالكية بأنها : إخراج جزء مخصوص من مال مخصوص بلغ النصاب لمستحقه ، إن تم الملك ، والحول ، غير معدن ولا حرث) ، وعرَّفها الحنفية بأنها : تمليك جزء من مال مخصوص لشخص مخصوص ، عينه الشارع لوجه الله تعالى ، فقولهم: تمليك ، احترز به عن الإباحة ، فلو أطعم يتيما ناويا الزكاة ، لا يجزيه إلا إذا دفع إليه المطعوم ، كما لو كساه ، وذلك بشرط أن يعقل القبض إلا إذا حكم عليه بنفقة الأيتام . وقولهم: « جزء من مال » ، خرج المنفعة ، فلو أسكن فى داره فقيرا سنة: ناويا الزكاة لا يجزيه . والجزء المخصوص : هو المقدار الواجب دفعه ، والمال المخصوص : هو النصاب المقدر شرعا ، والشخص المخصوص : هم مستحقو الزكاة . وقولهم: عينه الشارع ، هو ربع عشر نصاب معين مضى عليه الحول . فأخرج صدقة النافلة والفطر .

وقولهم: لله تعالى ، أى : بقصد مرضاة الله تعالى .

وعرفَّها الشافعية: بأنها اسم لما يخرج من مال أو بدن على وجه مخصوص.

وتعريفها عند الحنابلة : هو أنها حق واجب فى مال مخصوص لطائفة مخصوصة فى وقت مخصوص .

والطائفة: هم الأصناف الثمانية المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٦٠]

والوقت المخصوص : هو تمام الحول فى الماشية والنقود (الأثمان) وعروض التجارة . وعند اشتداد الحب فى الحبوب ، وعند بدو صلاح الثمرة التى تجب فيها الزكاة ، وعند حصول فيه الزكاة من العسل ، واستخراج ما تجب فيه من المعادن ، وعند غروب الشمس من ليلة الفطر لوجوب زكاة الفطر .

وخرج بقوله: (واجب) : الحق المسنون وكإلقاء السلام واتباع الجنائز.

وبقوله: (فى مال) : رد السلام ونحوه .

وبقوله: (مخصوص) : ما يجب فى كل الأموال كالديون والنفقات .

وبقوله: (لطائفة مخصوصة) : نحو الدية لأنها لورثة المقتول .

وبقوله: (فى وقت مخصوص) : نحو النذر والكفارة .

وبه يتبين أن الزكاة أطلقت فى عرف الفقهاء على نفس فعل الإيتاء ، أى : أداء الحق الواجب فى المال ، وأطلقت أيضا على الجزء المقدر من المال الذى فرضه الله حقا للفقراء . وتسمى الزكاة صدقة لدلالتها على صدق العبد فى العبودية وطاعة الله .

وحكمة الزكاة: التفاوت بين الناس فى الأرزاق والمواهب ، وتحصيل المكاسب أمر واقع طارئ يحتاج فى شرع الله إلى علاج ؛ أى : أن الله - تعالى - فضل بعضنا على بعض فى الرزق ، وأوجب على الغنى أن يعطى الفقير حقا واجبا مفروضا ، لا تطوعا ولا منّه: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ [المعارج].

وفريضة الزكاة أولى الوسائل لعلاج ذلك التفاوت ، وتحقيق التكافل أو الضمان الاجتماعى فى الإسلام .

فهى أولا: تصون المال وتحصنه من تطلع الأعين وامتداد أيدى الآثمين والمجرمين ، قال ﷺ : « حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ،

وأعدوا للبلاء الدعاء »[١].

وثانيا: عون للفقراء والمحتاجين . تأخذ بأيديهم لاستئناف العمل والنشاط إن كانوا قادرين . وتساعدهم على ظروف العيش الكريم إن كانوا عاجزين ، فتحمى المجتمع من مرض الفقر ، والدولة من الإرهاق والضعف ، والجماعة مسؤولة بالتضامن مع الفقراء وكفايتهم ، فقد روى: « إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع أغنياؤهم ، ألا وإن الله يحاسبهم حسابا شديدا ويعذبهم عذابا أليما »[٢] وروى أيضا: « ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون : ربنا ظلمونا حقوقنا التى فرضت لنا عليهم. فيقول الله تعالى: وعزتى وجلالى لأدنينكم ولأباعدنهم» . ثم تلا ﷺ: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [المعارج][٣] .

وثالثا: تطهر النفس من داء الشح والبخل ، وتعود المؤمن البذل والسخاء ، كى لا يقتصر على الزكاة ، وإنما يساهم بواجبه الاجتماعى فى رفد الدولة بالعطاء عند الحاجة ، وتجهيز الجيوش وصد العدوان ، وفى إمداد الفقراء إلى حد الكفاية ، إذ عليه أيضا الوفاء بالنذور وأداء الكفارات المالية بسبب الحنث فى اليمين ، والظهار ، والقتل الخطأ ، وانتهاك حرمة شهر رمضان ، وصدقات التطوع والهبات ونحوها .

---

(١) الطبرانى فى الكبير (١٠/ ١٥٨) (١٠١٩٦) ، وفى الأوسط (١٩٦٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ٦٦) : فيه موسى بن عمير الكوفى ، وهو متروك عن ابن مسعود ، ورواه أبو داود مرسلا عن الحسن ـ وهو ضعيف ـ وله شواهد انظر : كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلونى الجراحى ، ج١ ، ص٤٣٢ ، ٤٣٣ .

(٢) الطبرانى فى الأوسط (٣٥٧٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ٦٥): « تفرد به ثابت ابن محمد الزاهد . قلت : ثابت من رجال الصحيح ، وبقية رجاله وثقوا وفيهم كلام» عن على ، وهو ضعيف .

(٣) الطبرانى فى الأوسط (٤٨١٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ٦٥): « فيه الحارث بن النعمان ، وهو ضعيف » عن أنس وهو ضعيف أيضا.

ورابعا: وجبت شكرا لنعمة المال ـ حتى أنها تضاف إليه ـ فيقال : زكاة المال والإضافة للسببية كصلاة الظهر وصوم الشهر وحج البيت .

والزكاة ركن من أركان الإسلام الخمسة ، وفرض من فروضه ، وفرضت فى المدينة فى شوال فى السنة الثانية للهجرة بعد فرض رمضان وزكاة الفطر ، ولكن لا تجب على الأنبياء إجماعا ؛ لأن الزكاة طهرة لمن عساه أن يتدنس ، والأنبياء مبرؤون منه ؛ ولأن ما فى أيديهم ودائع لله ، ولأنهم لا ملك لهم ، ولا يورثون أيضا ، وقرنت بالصلاة فى القرآن الكريم فى اثنين وثمانين موضعا مما يدل على كمال الاتصال بينهما ، وهى واجبة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع الأمة [١] .

والحج :

الحج لغة: القصد مطلقا ، وعند الخليل قال : كثرة القصد إلى من تعظمه . وشرعا : قصد الكعبة لأداء أفعال مخصوصة ، أو هو زيارة مكان مخصوص بفعل مخصوص . والزيارة : هى الذهاب . والمكان المخصوص : الكعبة وعرفة ، والزمن المخصوص : هو أشهر الحج وهى : شوال وذو القعدة وذو الحجة ، والعشر الأوائل من ذى الحجة ، ولكل فعل زمن خاص ، فالطواف مثلا عند الجمهور من فجر النحر إلى آخر العمر . والوقوف بعرفة من زوال الشمس يوم عرفة لطلوع فجر يوم النحر . والفعل المخصوص : أن يأتى محرما بنية الحج إلى أماكن معينة .

وتاريخ مشروعيته على الصحيح أن الحج فرض فى أواخر سنة تسع من الهجرة . وأن آية فرضه هى قوله تعالى: ﴿ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن

---

(١) الفقه الإسلامى وأدلته : د . وهبى الزحيلى ٢ / ٧٣٠ ـ ٧٣٣ .

كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:٩٧] نزلت عام الوفود أواخر سنة تسع وهو رأى أكثر العلماء ، وأنه ﷺ لم يؤخر الحج بعد فرضه عاما واحدا ، وإنما أخره عليه السلام للسنة العاشرة لعذر ، وهو نزول الآية بعد فوات الوقت ، فكان حجه بعد الهجرة حجة واحدة سنة عشر كما روى مسلم[١] .

والعمرة لغة : الزيارة ، وقيل: القصد إلى مكان عامر ؛ وسميت بذلك لأنها تفعل فى العمر كله ، وشرعا : قصد الكعبة للنسك وهو الطواف والسعى ، ولا يغنى عنها الحج وإن اشتمل عليها .

مكانة الحج والعمرة فى الإسلام وحكمتهما :

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام ، فرضه الله تعالى على المستطيع ، والعمرة مثله ، فهما أصلان عند الشافعية والحنابلة لقوله تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٩٦] وهى ـ أى : العمرة ـ سنة عند المالكية والحنفية ، وقد اعتمر النبي ﷺ أربع عمر كلهن فى ذى القعدة إلا التى مع حجته[٢] الأولى : الحديبية سنة ست من الهجرة ، والثانية سنة سبع وهى عمرة القضاء ، والثالثة سنة ثمان عام الفتح ، والرابعة مع حجته سنة عشر ، وكان إحرامها فى ذى القعدة وأعمالها فى ذى الحجة .

قال القاضى حسين - وهو من الشافعية : الحج أفضل العبادات لاشتماله على المال والبدن .

وقال الحليمى: الحج يجمع معانى العبادات كلها ، فمن حج فكأنما صام وصلى واعتكف وزكى ورابط فى سبيل الله وغزا ؛ ولأنا دعينا إليه ونحن فى أصلاب الآباء كالإيمان الذى هو أفضل العبادات .

والراجح عند الشافعية والحنابلة : أن الصلاة أفضل منه ؛ لأن الصلاة عماد

---

(١) مسلم (١٢٥٤/٢١٨) .

(٢) مسلم (١٢٥٣/٢١٧) عن أنس .

الزكاة لا يجزيه . والجزء المخصوص : هو المقدار الواجب دفعه ، والمال المخصوص : هو النصاب المقدر شرعا ، والشخص المخصوص : هم مستحقو الزكاة . وقولهم: عينه الشارع ، هو ربع عشر نصاب معين مضى عليه الحول . فأخرج صدقة النافلة والفطر .

وقولهم: لله تعالى ، أى : بقصد مرضاة الله تعالى .

وعرفها الشافعية: بأنها اسم لما يخرج من مال أو بدن على وجه مخصوص.

وتعريفها عند الحنابلة : هو أنها حق واجب فى مال مخصوص لطائفة مخصوصة فى وقت مخصوص .

والطائفة: هم الأصناف الثمانية المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٦٠]

والوقت المخصوص : هو تمام الحول فى الماشية والنقود (الأثمان) وعروض التجارة . وعند اشتداد الحب فى الحبوب ، وعند بدو صلاح الثمرة التى تجب فيها الزكاة ، وعند حصول فيه الزكاة من العسل ، واستخراج ما تجب فيه من المعادن ، وعند غروب الشمس من ليلة الفطر لوجوب زكاة الفطر .

وخرج بقوله: (واجب) : الحق المسنون وكإلقاء السلام واتباع الجنائز.

وبقوله: (فى مال) : رد السلام ونحوه .

وبقوله: (مخصوص) : ما يجب فى كل الأموال كالديون والنفقات، .

وبقوله: (لطائفة مخصوصة) : نحو الدية لأنها لورثة المقتول .

وبقوله: (فى وقت مخصوص) : نحو النذر والكفارة .

وبه يتبين أن الزكاة أطلقت فى عرف الفقهاء على نفس فعل الإيتاء ، أى : أداء الحق الواجب فى المال ، وأطلقت أيضا على الجزء المقدر من المال الذى

فرضه الله حقا للفقراء . وتسمى الزكاة صدقة لدلالتها على صدق العبد فى العبودية وطاعة الله .

وحكمة الزكاة: التفاوت بين الناس فى الأرزاق والمواهب ، وتحصيل المكاسب أمر واقع طارئ يحتاج فى شرع الله إلى علاج ؛ أى : أن الله - تعالى - فضل بعضنا على بعض فى الرزق ، وأوجب على الغنى أن يعطى الفقير حقا واجبا مفروضا ، لا تطوعا ولا منّه: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ [المعارج].

وفريضة الزكاة أولى الوسائل لعلاج ذلك التفاوت ، وتحقيق التكافل أو الضمان الاجتماعى فى الإسلام .

فهى أولا: تصون المال وتحصنه من تطلع الأعين وامتداد أيدى الآثمين والمجرمين ، قال ﷺ : « حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، وأعدوا للبلاء الدعاء »[(١)].

وثانيا: عون للفقراء والمحتاجين . تأخذ بأيديهم لاستئناف العمل والنشاط إن كانوا قادرين . وتساعدهم على ظروف العيش الكريم إن كانوا عاجزين ، فتحمى المجتمع من مرض الفقر ، والدولة من الإرهاق والضعف ، والجماعة مسؤولة بالتضامن مع الفقراء وكفايتهم ، فقد روى: « إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع أغنياؤهم ، ألا وإن الله يحاسبهم حسابا شديدا ويعذبهم عذابا أليما »[(٢)]

---

(١) الطبرانى فى الكبير (١٠/ ١٥٨) (١٠١٩٦) ، وفى الأوسط (١٩٦٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ٦٦) : فيه موسى بن عمير الكوفى ، وهو متروك عن ابن مسعود ، ورواه أبو داود مرسلا عن الحسن ـ وهو ضعيف ـ وله شواهد انظر : كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلونى الجراحى ، ج١ ، ص٤٣٢ ، ٤٣٣ .

(٢) الطبرانى فى الأوسط (٣٥٧٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ٦٥): « تفرد به ثابت ابن محمد الزاهد . قلت : ثابت من رجال الصحيح ، وبقية رجاله وثقوا وفيهم كلام» عن على ، وهو ضعيف .

ويذكر الحج بماضى الإسلام التليد ، وبجهاد النبي ﷺ والسلف الصالح الذين أناروا الدنيا بالعمل الصالح .

والحج كغيره من الأسفار يعود الإنسان الصبر وتحمل المتاعب ، ويعلم الانضباط والتزام الأوامر ، فيستعذب الألم فى سبيل إرضاء الله تعالى ، ويدفع إلى التضحية والإيثار .

وبالحج يؤدى العبد لربه شكر النعمة ؛ نعمة المال ، ونعمة العافية ، ويغرس فى النفس روح العبودية الكاملة ، والخضوع الصادق الأكيد لشرع الله ودينه ، قال الكاسانى فى البدائع ٢ / ١١٨ : فى الحج إظهار العبودية وشكر النعمة ، أما إظهار العبودية فهو إظهار التذلل للمعبود ، وفى الحج ذلك ؛ لأن الحاج فى حال إحرامه يظهر الشعث ويرفض أسباب التزين والارتفاق . ويظهر بصورة عبد سخط عليه مولاه . فيتعرض بسوء حاله لعطف مولاه . وأما شكر النعمة ، فلأن العبادات بعضها بدنية وبعضها مالية . والحج عبادة لا تقوم إلا بالبدن والمال . ولهذا لا يجب إلا عند وجود المال وصحة البدن ؛ فكان فيه شكر النعمتين ، وشكر النعمة ليس إلا استعمالها فى طاعة المنعم . وشكر النعمة واجب عقلا وشرعا .

وأما أهم فوائد الحج الجماعية : فهو أنه يؤدى بلا شك إلى تعارف أبناء الأمة على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وأوطانهم ، وإمكان تبادل المنافع الاقتصادية الحرة فيما بينهم ، والمذاكرة فى شؤون المسلمين العامة ، وتعاونهم صفا واحدا أمام أعدائهم ، وغير ذلك مما يدخل فى معنى قوله تعالى: ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ ﴾ [الحج: ٢٨] ويشعر الحج بقوة الرابطة الأخوية مع المؤمنين فى جميع أنحاء الأرض : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] ، ويحس الناس أنهم حقا متساوون لا فضل لعربى على أعجمى ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى .

ويساعد الحج على نشر الدعوة الإسلامية ، ودعم نشاط الدعاة فى أنحاء

المعمورة على النحو الذى بدأ به النبي ﷺ نشر دعوته بلقاء وفود الحجيج كل عام .

وأما الاعتماد على موسم الحج ليكون مؤتمرا شعبيا عاما لمخاطبة المؤمنين ، فهو غير مطلوب شرعا ؛ لأن المعول فى السياسة الإسلامية على رأى أهل الخبرة والاختصاص والمشورة ، فهو المرجع والمقصد ؛ ولأن كثرة المسلمين الهائلة تمنع تحقيق الفائدة المرجوة ، ولأن تخطيط السياسة ووضع المنهج الإسلامى منوط برأى الحكام المسلمين ، ولم يعد يبدى أحد من الأفراد العاديين شيئاً من النفوذ أو السلطة لتحقيق شىء يذكر [١] .

الجهاد :

والجهاد من أفضل الأعمال والعبادات ، وقد سبق ذكر فضله على الحج أوفضل الحج عليه . يتكلم الفقهاء عادة عن العلاقات الدولية العامة والخاصة بين المسلمين وغيرهم فيما يسمونه كتاب السير . والسير جميع سيرة : وهى السنة والطريقة ، ويقصد بها هنا : سيرة الرسول ﷺ فى غزواته وذلك يشمل البحث فى حقيقة الجهاد والمكلفين بالقتال وواجبات المسلمين قبل بدء المعركة وفى أثنائها وبعد انتهائها . وحكم المعاهدات من أمان وهدنة وعقد ذمة ، وحكم الأنفال والغنائم وكيفية تقسيم خمس الغنيمة ، وحكم أموال المسلمين التى استولى عليها الأعداء ، وحكم الأسرى وحكم المرتدين .

وسأذكر هنا هذه الموضوعات مجملة ؛ لأن تفصيلها يحتاج إلى مؤلف ضخم [٢] :

معنى الجهاد : الجهاد لغة : بذل الجهد وهو الوسع والطاقة ، مأخوذ من الجهد بالضم ، أو المبالغة فى العمل. مأخوذ من الجهد بالفتح .

---

(١) الفقه الإسلامى وأدلته ٣/ ٨ ـ ١٤ .

(٢) الفقه الإسلامى وأدلته ٦/ ٤١٣ .

واصطلاحا عند الأحناف: هو الدعاء إلى الدين الحق وقتال من لم يقبله بالمال والنفس. قال تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة:٤١] وقال – سبحانه:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:١١١] ، وعرفه غير الأحناف بما يقارب هذا التعريف ، فقال الشافعية مثلا : هو قتال الكفار لنصرة الإسلام .

وأنسب تعريف للجهاد شرعا: إنه بذل الوسع والطاقة فى قتال الكفار ومدافعتهم بالنفس والمال واللسان .

فضل الجهاد ومنزلته فى الإسلام :

الجهاد فى الإسلام ذروة سنامه ، وسياج مبادئه وطريق الحفظ على الإسلام والمسلمين . فهو من أهم مبادئ الإسلام العظمى ؛ لأنه سبيل العزة والكرامة والسيادة . ولهذا كان فريضة محكمة ، وأمرا ماضيا إلى يوم القيامة . وما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا وغزوا فى عقر دارهم وخذلهم الله ، وسلط عليهم شرار الناس وأراذلهم . قال تعالى : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج : ٧٨] ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١] .

وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة تبين فضل الجهاد ، وأنه أفضل الأعمال عند الله تعالى . سئل رسول ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ قال: إيمان بالله ورسوله ، قيل ثم ماذا ؟ قال: الجهاد فى سبيل الله . قيل : ثم ماذا ؟ قال: حج مبرور [١].

وقال النبي ﷺ : لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها[٢].

والمجاهد الذى يجود أو يضحى بنفسه فى سبيل الله ، سبيل الجماعة والقيم العليا ، يتمتع بالخلود والرفعة والمكانة فى تاريخ البشرية وعند الله تعالى حيث يجعله فى مصاف الأنبياء والمرسلين . وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩ ـ ١٧٠] .

ولقد تمنى نبى الله أن يحوز درجة الشهادة فى سبيل الله ، فقد قال: والذى نفسى بيده لوددت أنى أقاتل فى سبيل الله فأقتل ثم أحيا ثم أقتل ، ثم أحيا ثم أقتل[٣] .

وقال: يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين[٤] ، بل إن الشهيد نفسه يتمنى العودة إلى دار الدنيا . قال النبي ﷺ : ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا له ما على الأرض من شيء إلا الشهيد ، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة[٥] .

---

(١) سبق تخريجه ص ١٩٧ .
(٢) البخارى (٢٧٩٢) ، ومسلم (١٨٨٠/ ١١٢) ، عن أنس بن مالك ﷺ .
(٣) البخارى (٧٢٢٧) ، ومسلم (١٨٧٦/ ١٠٦) ، عن أبى هريرة .
(٤) مسلم (١٨٨٦/ ١١٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص .
(٥) البخارى (٢٨١٧) ، ومسلم (١٨٧٧/ ١٠٨) ، عن أنس ﷺ .

وقد عقد الرسول الكريم مقارنة بين قتلى الحرب فقال: القتل ثلاثة: رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله فى سبيل الله ، حتى إذا لقى العدو قاتلهم حتى يقتل ، فذلك الشهيد المفتخر فى خيمة الله تحت عرشه ، لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة . ورجل مؤمن قرف [١] على نفسه من الذنوب والخطايا ، جاهد بنفسه وماله فى سبيل الله ، إذا لقى العدو قاتل حتى قتل مصمصة [٢] محيت ذنوبه وخطاياه ، إن السيف محّاء للخطايا ، وأدخل من أى من أبواب الجنة شاء ، فإن لها ثمانية أبواب ، ولجهنم سبعة أبواب ، وبعضها أفضل من بعض ، ورجل منافق جاهد بنفسه وماله حتى إذا لقى العدو قاتل فى سبيل الله حتى يقتل ، فإن ذلك فى النار ، السيف لا يمحو النفاق »[٣] .

وأوامر الله - تعالى - كلها عبادة ، وكل إتيان بها تقرب إلى الله تعالى ، وطريقة أدائها رسالة لكل إنسان فى هذه الدنيا .

إن هذا هو الإسلام ، ففيه السمو والعلو والأخذ بيد الإنسان من المهالك إلى النجاة ، وفيها الاعتراف المطلق لفضل الخالق - جل وعلا - على المخلوق ، وفيها المنافع العامة للفرد وللأسرة وللجماعة وللإنسانية كافة وما كلف الله - تعالى - عباده بما لا يطيقون ، ولعل حادثة فرض الصلاة خير شاهد على ذلك ، فقد خففت من خمسين صلاة إلى خمس صلوات فى اليوم والليلة ، ولكن ثوابها بقى خمسين ثوابا لكل صلاة عشرة ، وزاد الله تعالى الفضل فى العبادة للإنسان فأعطاه من الفضائل بإتيانها ما لا يخطر على بال البشر ، ففى الصلاة المكتوبة مع الجماعة أعطاه ثوابا كبيرا لا يدانيه ثواب ، فهى سبع وعشرون درجة تفضل صلاة

---

(١) قرف الذنب واقترفه: إذا كسبه وعمله .

(٢) أى: مطهرة من الدنس والخطايا .

(٣) أخرجه من حديث عتبة بن عبد السلمى أحمد (٤/ ١٨٥، ١٨٦) ، والطبرانى فى الكبير (١٧/ ١٢٦) (٣١١) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٢٩٤) : « ورجال أحمد رجال الصحيح ، خلا المثنى الأملوكى وهو ثقة ».

الفرد وهى عشر بثوابها المفروض ، فتغدو صلاة الجماعة بمائتين وسبعين صلاة . وإذا سبق المسلم إلى الصلاة المفروضة وقتا دخل فى صلاة ، لقوله ﷺ : لا يزال العبد فى صلاة ما كان فى مصلاه ينتظر الصلاة ، وتقول الملائكة : اللهم اغفر له اللهم ارحمه حتى ينصرف أو يحدث[١] .

وسبق ذكر الحديث الشريف القائل : لو أن فى باب أحدكم نهرا يغتسل منه خمس مرات فى اليوم ، هل يبقى من درنه شىء؟ قالوا : لا يبقى من درنه شىء ، فقال: وكذلك الصلاة فإنها تمحو الخطايا[٢] . وثواب الزكاة يتجلى بقوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١] والآية التالية فى سورة البقرة أيضا ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة ٢٦٥] .

والصيام لله أعَّد ثوابه للمسلم ولم يكشف كل ما أعد ، فإن وردت الأحاديث الكثيرة عن فضل الصوم ، يبقى الحديث القدسى قد خبأ ثوابا للصائم لا يعلمه إلا الله لقوله ﷺ : الصوم لى وأنا أجزى به[٣] .

والحج غسَّال للخطايا مناع منها ، فإن لم يفسق أو يفجر خرج كيوم ولدته أمه . أما رأس الأعمال : الإيمان ، والشهادة دخول فى رحاب الإسلام يحفظ من نطقها دمه وماله وعرضه فى جماعة المسلمين .

---

(١) البخارى (٤٧٧) ، ومسلم (٦٤٩/ ٢٧٤) .
(٢) سبق تخريجه ص ١٧٥ .
(٣) البخارى (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١/ ١٦٣) .

وفى هذا الباب (الشهادة) التى هى أول الإسلام والخطوة الأولى لولوج باب الخير والإيمان ففيها أحاديث كثيرة نذكر هنا بعضا منها لأهميتها ، ولكونها الحد الفصل بين الإيمان والكفر ، وبأنها جواز المرور إلى الإسلام والخلاص من الكفر ، وبعدها يبدأ التكليف من العبادات التى فرضها الله تعالى :

- عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ، عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله تعالى[١] رواه البخارى. وقوله: بحق الإسلام ، هذه اللفظة تفرد بها البخارى دون مسلم .

- وقد روى معنى هذا الحديث عن النبي ﷺ قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وصلوا صلاتنا ، واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها[٢] .

- وروى الإمام أحمد من حديث معاذ بن جبل ، عن النبي ﷺ قال: إنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، ويشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، فإذا فعلوا ذلك فقد اعتصموا وعصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله عز وجل[٣] .

- وخرج نحوه من حديث أبى هريرة ليس فيه ذكر : إقام الصلاة ولا إيتاء الزكاة ، ففى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبي ﷺ قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فمن قال : لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا

---

(١) البخارى (٢٥) ، ومسلم (٢٢/ ٣٦) .
(٢) البخارى (٣٩٢) .
(٣) رواه أحمد (٥ / ٢٤٥، ٢٤٦)

بحقه وحسابه على الله تعالى عزوجل . وفى رواية لمسلم: حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بى وبما جئت به[١] .

- وروى مسلم أيضا من حديث جابر ﷺ ، عن النبي ﷺ بلفظ حديث أبى هريرة الأول وزاد فى آخره ثم قرأ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية] .

- وروى مسلم أيضا من حديث أبى مالك الأشجعى ، عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عزوجل[٢] .

- وقد روى عن سفيان بن عيينة أنه قال : كان فى أول الإسلام قبل فرض الصلاة والصوم والزكاة والهجرة (وهذا ضعيف جدا) وفى صحته عن سفيان نظر ؛ فإن رواة هذه الأحاديث إنما صحبوا النبي ﷺ بالمدينة وبعضهم تأخر إسلامه .

- ثم قوله: عصموا دماءهم وأموالهم ، يدل على أنه كان عند هذا القول مأمورا بالقتال ، ويقتل من أبى الإسلام . وهذا كله بعد هجرته إلى المدينة . ومن المعلوم بالضرورة أن النبي ﷺ كان يقبل من كل من جاءه يريد الدخول فى الإسلام الشهادتين فقط ، ويعصم دمه بذلك ، ويجعله مسلما ، وقد أنكر على أسامة بن زيد قتله لمن قال: لا إله إلا الله لما رفع عليه السيف ، واشتد نكيره عليه .

- ولم يكن يشترط على من جاء يريد الإسلام أن يلتزم بالصلاة والزكاة ، بل قد روى أنه قبل من قوم الإسلام واشترطوا ألا يزكوا ، ففى مسند الإمام أحمد

---

(١) البخارى (١٣٩٩) ، ومسلم (٢١/ ٣٣،٣٤) .
(٢) مسلم (٢١/ ٣٥).

عن جابر قال : اشترطت ثقيف على رسول الله ﷺ أن لا صدقة عليها ولا جهاد وأن رسول الله ﷺ قال: سيصدقون ويجاهدون[١] .

- وروى محمد بن نصر المروزى بإسناد ضعيف جدا عن أنس قال : لم يكن النبي ﷺ يقبل من إجابة أحد إلى الإسلام إلا بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . وكانتا فريضتين على من أقر بمحمد صلى ﷺ وبالإسلام . وذلك قول الله عزوجل: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المجادلة : ١٣][٢] وهذا لا يثبت ، وعلى تقدير ثبوته فالمراد منه : أنه لم يكن يقر أحدا دخل الإسلام على ترك الصلاة والزكاة وهذا حق . . فإنه ﷺ أمر معاذا لما بعثه إلى اليمن أن يدعوهم أولا إلى الشهادتين وقال: وإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم بالصلاة ، ثم بإيتاء الزكاة[٣] وكان من سأله عن الإسلام يذكر له مع الشهادتين بقية أركان الإسلام . كما قال لجبريل عليه السلام لما سأله عن الإسلام . وكما قال للأعرابى الذى جاءه ثائر الرأس يسأل عن الإسلام .

وبهذا الذى قررناه يظهر الجمع بين ألفاظ أحاديث هذا الباب ويتبين أنها كلها حق ؛ فإن كلمتى الشهادتين بمجردهما تعصم من أتى بهما ، ويصير بذلك مسلما ، فإذا دخل فى الإسلام فإن أقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وقام بشرائع الإسلام ، فله ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم . وإن أخل بشىء من هذه الأركان فإن كانوا جماعة لهم منعة قوتلوا . وقد ظن بعضهم أن معنى المدين أن

---

(١) أحمد (٣/ ٣٤١) وفى سنده عبد الله بن لهيعة ، وهو ضعيف .

(٢) رواه ابن نصر فى : تعظيم قدر الصلاة ١/ ٩٥ . وفى سنده عروة بن مروان العرقى الرقى .
قال الدارقطنى: كان أميا ليس بالقوى ، وأبو العوام واسمه عمران بن داود القطان صاحب أوهام .

(٣) البخارى (١٣٩٥) .

الكافر يقاتل حتى يأتى بالشهادتين ، ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ، وجعلوا ذلك حجة على خطاب الكفار بالفروع . وفى هذا نظر فسيرة النبي ﷺ فى قتال الكفار تدل على خلاف هذا .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ﷺ أن النبي ﷺ دعا عليا يوم خيبر فأعطاه الراية وقال: امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك ، فسار على شيئا ثم وقف ، فصرخ يا رسول الله ، على ماذا أقاتل الناس ؟ فقال: « قاتلهم على أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك ، فقد عصموا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله عزوجل »[(١)] ، فجعل مجرد الإجابة إلى الشهادتين عاصمة للنفوس والأموال إلا بحقها . ومن حقها الامتناع من الصلاة والزكاة بعد الدخول فى الإسلام كما فهمه الصحابة رضوان الله عليهم.

ومما يدل على قتال الجماعة الممتنعين من إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة من القرآن: قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة٥]. قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ١١] وقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣] مع قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥][(٢)] .

---

(١) مسلم (٢٤٠٥ / ٣٣) .

(٢) جامع العلوم والحكم : تحقيق ، شعيب الأرناؤوط ، ٢٢٦ ـ ٢٣١ فما بعد .

وهذا يعطى المسلم هذه المزايا التى لا تدانيها مزايا فى الدنيا وفى الآخرة . وجميع العبادات قربات إلى الله تعالى قال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦ ، ٥٧].

ويبقى المجتمع الإسلامى مجتمعا متميزا طاهرا عابدا مؤمنا ، فيه الخير والبركة والسلام ، وقد تصوره حلم الكثير من الفلاسفة فى القديم والجديد بالمجتمع المثالى الفاضل ، فكان المجتمع المسلم الذى تحققت به هذه الصفات من الفضل والسمو والسلام والمحبة وشهادة الله تعالى بأمة الإسلام خير شاهد بقوله - جل وعلا:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠] . وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

فالعبادات فى الإسلام رسالة مفتوحة إلى المسلمين أولا ؛ ليقوموا بها ويوفوها حقها ويجعلوها خالصة لوجه الله - تعالى - ولنيل مرضاته ولتحقيق أوامره ونواهيه . ورسالة إلى العالم يبين لهم ذلك المجتمع الفاضل الذى بناه الإسلام ولم يتحصل مثله إلا هو ، ولن يكون غيره إلا هو ، سواء فى الحاضر أو فى المستقبل .

وحسابهم على الله تعالى[١] رواه البخارى. وقوله: بحق الإسلام ، هذه اللفظة تفرد بها البخارى دون مسلم .

- وقد روى معنى هذا الحديث عن النبي ﷺ قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وصلوا صلاتنا ، واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا . فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها[٢] .

- وروى الإمام أحمد من حديث معاذ بن جبل ، عن النبي ﷺ قال: إنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، ويشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، فإذا فعلوا ذلك فقد اعتصموا وعصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله عز وجل[٣] .

- وخرج نحوه من حديث أبى هريرة ليس فيه ذكر : إقام الصلاة ولا إيتاء الزكاة ، ففى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبي ﷺ قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فمن قال : لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله تعالى عزوجل . وفى رواية لمسلم: حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بى وبما جئت به[٤] .

- وروى مسلم أيضا من حديث جابر ﷺ ، عن النبي ﷺ بلفظ حديث أبى هريرة الأول وزاد فى آخره ثم قرأ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية] .

---

(١) البخارى (٢٥) ، ومسلم (٢٢/ ٣٦) .
(٢) البخارى (٣٩٢) .
(٣) رواه أحمد (٥ / ٢٤٥، ٢٤٦)
(٤) البخارى (١٣٩٩) ، ومسلم (٢١/ ٣٣،٣٤) .

- وروى مسلم أيضا من حديث أبى مالك الأشجعى ، عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عزوجل[١] .

- وقد روى عن سفيان بن عيينة أنه قال : كان فى أول الإسلام قبل فرض الصلاة والصوم والزكاة والهجرة (وهذا ضعيف جدا) وفى صحته عن سفيان نظر ؛ فإن رواة هذه الأحاديث إنما صحبوا النبي ﷺ بالمدينة وبعضهم تأخر إسلامه .

- ثم قوله: عصموا دماءهم وأموالهم ، يدل على أنه كان عند هذا القول مأمورا بالقتال ، ويقتل من أبى الإسلام . وهذا كله بعد هجرته إلى المدينة . ومن المعلوم بالضرورة أن النبي ﷺ كان يقبل من كل من جاءه يريد الدخول فى الإسلام الشهادتين فقط ، ويعصم دمه بذلك ، ويجعله مسلما ، وقد أنكر على أسامة بن زيد قتله لمن قال: لا إله إلا الله لما رفع عليه السيف ، واشتد نكيره عليه .

- ولم يكن يشترط على من جاء يريد الإسلام أن يلتزم بالصلاة والزكاة ، بل قد روى أنه قبل من قوم الإسلام واشترطوا ألا يزكوا ، ففى مسند الإمام أحمد عن جابر قال : اشترطت ثقيف على رسول الله ﷺ أن لا صدقة عليها ولا جهاد وأن رسول الله ﷺ قال: سيصدقون ويجاهدون[٢] .

- وروى محمد بن نصر المروزى بإسناد ضعيف جدا عن أنس قال : لم يكن النبي ﷺ يقبل من إجابة أحد إلى الإسلام إلا بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . وكانتا فريضتين على من أقر بمحمد صلى ﷺ وبالإسلام . وذلك قول الله عزوجل:

---

(١) مسلم (٢١/ ٣٥).

(٢) أحمد (٣/ ٣٤١) وفى سنده عبد الله بن لهيعة ، وهو ضعيف .

﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المجادلة : ١٣] [(١)] وهذا لا يثبت ، وعلى تقدير ثبوته فالمراد منه : أنه لم يكن يقر أحدا دخل الإسلام على ترك الصلاة والزكاة وهذا حق . . فإنه ﷺ أمر معاذا لما بعثه إلى اليمن أن يدعوهم أولا إلى الشهادتين وقال: وإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم بالصلاة ، ثم بإيتاء الزكاة[(٢)] وكان من سأله عن الإسلام يذكر له مع الشهادتين بقية أركان الإسلام . كما قال لجبريل عليه السلام لما سأله عن الإسلام . وكما قال للأعرابى الذى جاءه ثائر الرأس يسأل عن الإسلام .

وبهذا الذى قررناه يظهر الجمع بين ألفاظ أحاديث هذا الباب ويتبين أنها كلها حق ؛ فإن كلمتى الشهادتين بمجردهما تعصم من أتى بهما ، ويصير بذلك مسلما ، فإذا دخل فى الإسلام فإن أقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وقام بشرائع الإسلام ، فله ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم . وإن أخل بشىء من هذه الأركان فإن كانوا جماعة لهم منعة قوتلوا . وقد ظن بعضهم أن معنى المدين أن الكافر يقاتل حتى يأتى بالشهادتين ، ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ، وجعلوا ذلك حجة على خطاب الكفار بالفروع . وفى هذا نظر فسيرة النبي ﷺ فى قتال الكفار تدل على خلاف هذا .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ دعا عليا يوم خيبر فأعطاه الراية وقال: امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك ، فسار على شيئا ثم وقف ،

---

(١) رواه ابن نصر فى : تعظيم قدر الصلاة ١/ ٩٥ . وفى سنده عروة بن مروان العرقى الرقى .
قال الدارقطنى: كان أميا ليس بالقوى ، وأبو العوام واسمه عمران بن داود القطان صاحب أوهام .
(٢) البخارى (١٣٩٥) .

فصرخ يا رسول الله ، على ماذا أقاتل الناس ؟ فقال: « قاتلهم على أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك ، فقد عصموا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله عزوجل »[١] ، فجعل مجرد الإجابة إلى الشهادتين عاصمة للنفوس والأموال إلا بحقها . ومن حقها الامتناع من الصلاة والزكاة بعد الدخول فى الإسلام كما فهمه الصحابة رضوان الله عليهم.

ومما يدل على قتال الجماعة الممتنعين من إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة من القرآن: قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٥]. قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ١١] وقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣] مع قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥][٢] .

وهذا يعطى المسلم هذه المزايا التى لا تدانيها مزايا فى الدنيا وفى الآخرة . وجميع العبادات قربات إلى الله تعالى قال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦ ، ٥٧].

ويبقى المجتمع الإسلامى مجتمعا متميزا طاهرا عابدا مؤمنا ، فيه الخير والبركة

---

(١) مسلم (٢٤٠٥ / ٣٣) .

(٢) جامع العلوم والحكم : تحقيق ، شعيب الأرناؤوط ، ٢٢٦ ـ ٢٣١ فما بعد .

والسلام ، وقد تصوره حلم الكثير من الفلاسفة فى القديم والجديد بالمجتمع المثالى الفاضل ، فكان المجتمع المسلم الذى تحققت به هذه الصفات من الفضل والسمو والسلام والمحبة وشهادة الله تعالى بأمة الإسلام خير شاهد بقوله - جل وعلا:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠] . وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

فالعبادات فى الإسلام رسالة مفتوحة إلى المسلمين أولا ؛ ليقوموا بها ويوفوها حقها ويجعلوها خالصة لوجه الله - تعالى - ولنيل مرضاته ولتحقيق أوامره ونواهيه . ورسالة إلى العالم يبين لهم ذلك المجتمع الفاضل الذى بناه الإسلام ولم يتحصل مثله إلا هو ، ولن يكون غيره إلا هو ، سواء فى الحاضر أو فى المستقبل .

القسم الثالث

الفعل

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وحسن الخلق :

إن عمل المسلم وفعله رسالة طيبة وخطاب للناس جميعا ، وكلما تحلى المسلم

بفضائل الإسلام التى مَّر ذكرها ، والعبادات التى وردت بأداء حسن وإيمان ويقين فإن ذلك يؤثر فى نفوس الآخرين مهما كانت قلوبهم قاسية ، وإن الفضائل التى أقرها الإسلام إنما هى الطبع الذى خلق الله تعالى البشر عليه ، والفطرة التى فطر الناس عليها . وحديث الرسول ﷺ يدل على أن الإسلام هو الفطرة ، قال عليه الصلاة والسلام: كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ . قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم:٣٠] رواه من حديث أبى هريرة : والبخارى ومسلم[١] .

عن أبى هريرة مرفوعا عن رسول الله ﷺ : أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخيارهم خيارهم لنسائهم[٢] .

وقد أكد الإسلام على حقائق لا يختلف عليها البشر بأنها من الفضائل ، وأمر بالامتناع عن أعمال يعرف الجميع أنها رذائل ، فقد أمر بالخلق الحسن ، وقال ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[٣].

ومنها ما رواه أحمد والخرائطى فى أول المكارم بسند صحيح عن أبى هريرة مرفوعا بلفظ: « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق »[٤] . ومنها ما رواه الطبرانى فى الأوسط: إن الله بعثنى بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال[٥] .

---

(١) البخارى (١٣٨٥) ، ومسلم (٢٦٥٨/ ٢٢) .

(٢) أبو داود (٤٦٨٢) ، وأحمد (٢/ ٢٥٠) وقال الشيخ شاكر (٧٣٩٦) : إسناده صحيح

(٣) مالك فى الموطأ (٢/ ٩٠٤) (٨) بلاغا عن النبي ﷺ ، وقال ابن عبد البر: هو حديث مدنى صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبى هريرة وغيره .

(٤) أحمد (٢/ ٣٨١) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٩١): ورجاله رجال الصحيح.

(٥) الطبرانى فى الأوسط (٦٨٩٥) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٩١): فيه عمر بن إبراهيم القرشى وهو ضعيف ، عن جابر مرفوعا لكن معناه صحيح . انظر : كشف الخفاء : إسماعيل الجراحى ، ج١ ، ص٢٤٤ ، ط٣ ، ١٩٨٣ .

وقول الرسول ﷺ : « البر : حسن الخلق ، والإثم : ما حاك فى نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس »[١].

فهذا الحديث اشتمل على تفسير البر والإثم ، وبعض الأحاديث الأخرى فسرت بالحلال والحرام ، وحديث النواس بن سمعان (السابق) فسر النبي ﷺ فيه البر بحسن الخلق ، وفسره فى حديث وابصة وغيره بما اطمأن إليه القلب والنفس ، كما فسر الحلال بذلك فى حديث أبى ثعلبة وإنما اختلف تفسيره للبر لأن البر يطلق باعتبارين معينين :

أحدهما: باعتبار معاملة الخلق بالإحسان إليهم ، وربما خص بالإحسان إلى الوالدين ، فيقال: بر الوالدين ، ويطلق كثيرا على الإحسان إلى الخلق عموما . وقد صنف ابن المبارك كتابا سماه: كتاب البر والصلة ، وكذلك فى صحيح مسلم ، وجامع الترمذى .

كتاب البر والصلة: ويتضمن هذا الكتاب الإحسان إلى الخلق عموما . ويقدم فيه بر الوالدين على غيرهما ، وإذا قرن البر بالتقوى كما فى قوله عز وجل: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٢] فقد يكون البر: معاملة الخلق بالإحسان ، والتقوى : معاملة الحق بفعل طاعته ، واجتناب محرماته ، وقد يكون أريد بالبر : فعل الواجبات ، وبالتقوى : اجتناب المحرمات ، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة:٢] . قد يراد بالإثم:المعاصى وبالعدوان : ظلم الخلق ، وقد يراد بالإثم : ما هو محرم فى نفسه كالزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر ، وبالعدوان: تجاوز ما أذن فيه إلى ما نهى عنه مما حسبه مأذوناً فيه ، كقتل من أبيح قتله لقصاص من ولا يباح ، وأخذ زيادة على الواجب من الناس فى الزكاة ونحوها ، ومجاوزة الجلد الذى أمر به فى الحدود ونحو ذلك .

---

(١) مسلم (٢٥٥٣/ ١٤).

تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٨١] ، وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ [البقرة: ١٢٣] .

ويدخل فى التقوى الكاملة فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات ، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات ، وترك المكروهات ، وهو أعلى درجات التقوى . قال الله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾ [البقرة] .

وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝١٧٧ ﴾ [البقرة] .

قال معاذ بن جبل: ينادى يوم القيامة : أين المتقون ؟ فيقومون فى كنف من الرحمن لا يحتجب منهم ولا يستتر ، قالوا له : من المتقون ؟ قال : قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان ، وأخلصوا لله بالعبادة .

وقال ابن عباس: المتقون : الذين يحذرون من الله عقوبته فى ترك ما يعرفون من الهدى ، ويرجون رحمته فى التصديق بما جاء به .

وقال الحسن : المتقون : اتقوا ما حرم عليهم ، وأدوا ما افترض عليهم .

وقال عمر بن عبد العزيز : ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك ، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله ، وأداء ما افترض الله ، فمن رزقه الله بعد ذلك خيرا ، فهو من خير إلى خير .

وقال طلق بن حبيب : التقوى : أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله .

وعن أبى الدرداء قال : تمام التقوى : أن يتقى الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة ، حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما فيكون حجابا بينه وبين الحرام فإن الله قد بين للعباد الذى يصيرهم إليه فقال: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة] ، فلا تحقرن شيئا من الخير أن تفعله ، ولا شيئا من الشر أن تتقيه .

- وقال الحسن: ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرا من الحلال مخافة الحرام .

- وقال الثورى: إنما سموا متقين ؛ لأنهم اتقوا ما لا يتقى .

- وقال موسى بن أعين : المتقون تنزهوا عن الأشياء من الحلال مخافة أن يقعوا فى الحرام ، فسماهم الله متقين .

قال رسول الله ﷺ : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس »[(١)]، وحديث: « من اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه »[(٢)] .

- وقال ابن مسعود فى قوله تعالى: ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قال: أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر ، وشكره يدخل فيه جميع فعل الطاعات[(٣)] .

---

(١) الترمذى (٢٤٥١) ، وابن ماجه (٤٢١٥) .

(٢) البخارى (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩/١٠٧) .

(٣) الحاكم (٢/ ٢٩٤) ، وصححه ، ووافقه الذهبى .

- وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات كما قال أبو هريرة ، وسئل عن التقوى فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال : نعم ، قال : فكيف صنعت ؟ قال : إذا رأيت الشوك عدلت عنه ، أو جاوزته ، أو قصرت عنه . قال : ذاك التقوى ، وأخذ المعنى ابن المعتز فقال :

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى

واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

وأصل التقوى : أن يعلم العبد ما يتقى ثم يتقى ، قال عون بن عبد الله : تمام التقوى : أن يبتغى علم ما لم يعلم منها إلى ما علم منها .

وذكر معروف الكرخى عن بكر بن خنيس قال : كيف يكون متقيا من لا يدرى من يتقى ؟ ثم قال معروف : إذا كنت لا تحسن تتقى أكلت الربا ، وإذا كنت لا تحسن تتقى لقيتك امرأة فلم تغض بصرك ، وإذا كنت لا تحسن تتقى وضعت سيفك على عاتقك[1] . وقد قال النبي ﷺ لمحمد بن مسلمة : « إذا رأيت أمتى قد اختلفت فأت بسيفك أحدا ، فاضربه حتى ينقطع » .

ثم قال معروف: ومجلسى هذا لعله كان ينبغى لنا أن نتقيه . ثم قال : ومجيئكم معى من المسجد إلى هاهنا كان ينبغى لنا أن نتقيه أليس جاء فى الحديث (قول لعمر بن الخطاب) : إنه فتنة للمتبوع مذلة للتابع[2] .

وفى الجملة: فالتقوى هى وصية الله لجميع خلقه ووصية رسول الله ﷺ لأمته

---

(١) حملت سلاح التدخل فى قضايا الخلاف بين المسلمين ونهش أعراضهم ، وتسفيه أحلامهم وجعل الخطيئة منهم أساس أعمالهم .

(٢) حديث محمد بن مسلمة رواه أحمد (٣/ ٤٩٣) بنحوه ، وأبو نعيم فى الحلية (٨/ ٣٦٥) ، وابن ماجه (٣٩٦٢) ، وصححه الألبانى .

وكان ﷺ إذا بعث أميرا على سرية أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرا[١].

وما زالت وصية المسلمين مع الصحابة والتابعين والصالحين والعلماء والخطباء وصية بتقوى ، وخير ما يختم هذا الباب قول الله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران] .

الحياء:

- والحياء خير كله كما قال ﷺ ، عن عمران بن حصين ﷺ ورواه مسلم والبخارى عنه أيضا بلفظ : « الحياء لا يأتى إلا بخير »[٢]، ورواه الطبرانى عن أبى قرة بلفظ: « الحياء هو الدين كله »[٣].

والحياء من الإيمان- كما قال ﷺ [٤] عن ابن عمر – رضى الله عنهما- ورواه مسلم ، عن أبى هريرة[٥] ، وأخرجه الترمذى ، والحاكم والبيهقى بزيادة:

---

(١) مسلم (١٧٣١/ ٢) والمصدر السابق ، ٣٨٨-٤٠٤ بتصرف .
(٢) البخارى (٦١١٧) ، ومسلم (٣٧/ ٦٠).
(٣) الطبرانى فى الكبير (١٩/ ٢٩) (٦٣) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٣٠) : " فيه عبد الحميد بن سوار وهو ضعيف " .
(٤) البخارى (٦١١٨) ، ومسلم (٣٦/ ٥٩) .
(٥) مسلم (٣٥ / ٥٧) .

« والإيمان فى الجنة ، والبذاء من الجفاء ، والجفاء من النار »[١] . ورواه ابن عساكر ، عن أبى هريرة بلفظ: « الحياء من الإيمان ، وأحيا أمتى عثمان » . ورواه الترمذى عن أبى أمامة بلفظ: « الحياء والعى شعبتان من الإيمان ، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق » ، وورد الحديث بألفاظ أخر[٢] .

ونقتطف من بحث تحت هذا العنوان ، للأستاذ المرحوم محمد الغزالى حيث يقول[٣]:

والحياء أمارة صادقة على طبيعة الإنسان ، فهو يكشف عن قيمة إيمانه ومقدار أدبه ، وعندما ترى الرجل يتحرج من فعل ما لا ينبغى ، أو ترى حمرة الخجل تصبغ وجهه إذ بدر منه ما لا يليق ، فاعلم أنه حى الضمير نقى المعدن ، زكى العنصر ، وإذا رأيت الشخص صفيقا ، بليد الشعور لا يبالى ما يأخذ أو يترك ، فهو امرؤ لا خير فيه ، وليس له من وازع يعصمه عن اقتراف الآثام وارتكاب الدنايا .

وقد وصى الإسلام أبناءه بالحياء ، وجعل هذا الخلق السامى أبرز ما يتميز به الإسلام من فضائل ، قال رسول الله ﷺ : « إن لكل دين خلقا وخلق الإسلام الحياء »[٤] .

وقد أراد النبي ﷺ أن يجعل من حساسية المسلم بما فى الفضيلة من خير ، وبما فى الرذيلة من شر أساسا يدفعه إلى الاستمساك بالأولى ، والاشمئزاز من الأخرى حياء من ترك الخير ومن فعل الشر ، بغض النظر عن الثواب والعقاب كما قال ابن القيم :

---

(١) الترمذى (٢٠٠٩) وقال : (حسن صحيح) ، والحاكم (١ / ٥٢ ، ٥٣) .

(٢) انظر الترمذى (٢٠٢٧) ، وقال : « حسن غريب » وكشف الخفاء : العجلونى الجراحى ، ج١ ، ٤٢٢ - ٤٤٣ .

(٣) محمد الغزالى: خلق المسلم ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الحادية عشرة — ١٩٩٤م .

(٤) مالك فى الموطأ (٢ / ٩٠٥) (٩) ، قال ابن عبد البر : « رواه جمهور الرواة عن مالك مرسلا ».

هب البعث لم تأتنا رسله وجماحة النار لم تضرم

أليس من الواجب المستحق حياء العباد من المنعم ؟

وكان النبي ﷺ أرق الناس طبعا ، وأنبلهم سيرة ، وأعمقهم شعورا با الواجب ونفورا من الحرام .

ـ عن أبى سعيد الخدرى ﷺ ، روى الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ كان أشد حياء من العذراء فى خدرها ، وكان إذا رأى شيئا يكرهه عرفناه فى و جهه [١] .

إن الإيمان صلة كريمة بين العباد وربهم ، ومن حق هذه الصلة ، بل أثرها الأول تزكية النفوس ، وتقويم الأخلاق ، وتهذيب الأعمال ، ولن يتم ذلك إلا إذا تأسست فى النفس عاطفة حية ترتفع بها أبدا عن الخفايا ، وتستشعر الغضاضة من سفاسف الأمور . أما الإلمام بالمحاقر[٢] دون تورع ، والوقوع فى الصغائر دون اكتراث ، فذلك دلالة فقدان النفس لحيائها ، ثم فقدانها لإيمانها .

قال رسول الله ﷺ فى رواية الحاكم: « الحياء والإيمان قرناء جميعا ، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر »[٣]، وعلة ذلك أن المرء حينما يفقد حياءه يتدرج من سيئ إلى أسوأ ، ويهبط من رذيلة إلى أرذل ، ولا يزال يهوى حتى ينحدر إلى الدرك الأسفل . وقد روى عن رسول الله ﷺ حديث يكشف عن مراحل هذا السقوط الذى يبتدئ بضياع الحياء وينتهى بشر العواقب[٤] .

وعن أبى مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستحى فاصنع ما شئت »[٥] .

---

(١) مسلم (٢٣٢٠ / ٦٧) .
(٢) المحاقر : الأمور الحقيرة .
(٣) الحاكم (١ / ٢٢) ، وصححه ووافقه الذهبى .
(٤) خلق المسلم : محمد الغزالى ، ص ١٦٩ ، ١٧٠ .
(٥) البخارى (٣٤٨٣ ، ٣٤٨٤) .

وهذا القول: « إذا لم تستحى فاصنع ما شئت » فى معناه قولان .

أحدهما: أنه ليس بمعنى الأمر أن يصنع ما يشاء ، ولكنه على معنى الذم والنهى عنه .

والثانى: أنه أمر بفعل ما يشاء على ظاهر لفظه ، والمعنى : إذا كان الذى تريد فعله مما لا يستحى من فعله لا من الله ولا من الناس لكونه من أفعال الطاعات ، أو من جميل الأخلاق والآداب المستحسنة ، فاصنع منه ما شئت ، وهذا قول جماعة من الأئمة منهم : أبو إسحاق المروزى الشافعى والإمام أحمد وقول بعض السلف ، وقد سئل عن المروءة فقيل: ألا تعمل فى السر شيئا تستحى منه فى العلانية .

والحياء نوعان: أحدهما: ما كان خلقا وجبلة غير مكتسب: وهو من أجل الأخلاق التى يمنحها الله العبد ويجبله عليها ، ولهذا قال ﷺ: « الحياء لا يأتى إلا بخير »[1].

فإنه يكف عن ارتكاب القبائح ودناءة الأخلاق ، ويحث على استعمال مكارم الأخلاق ومعاليها ، فهو من خصال الإيمان بهذا الاعتبار . وقد روى عن عمر ﷺ أنه قال : من استحى اختفى واتقى ، ومن اتقى وقى .

وقال الجراح بن عبد الله الحكمى ـ وكان فارس أهل الشام: تركت الذنوب حياء أربعين سنة ثم أدركنى الورع . وعن بعضهم قال: رأيت المعالى نذالة ، فتركتها مروءة ، فاستحالت ديانة .

والثانى: ما كان مكتسبا معرفة الله ، ومعرفة عظمته وقربه من عباده ، واطلاعه عليهم ، وعلمه بخائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فهذا من أعلى خصال الإيمان . بل هو من أعلى درجات الإحسان ، وقد تقدم أن النبى ﷺ قال لرجل: « استح من الله كما تستحى رجلا من صالح عشيرتك » ، وعن عبد

---

(١) سبق تخريجه ص ٢١٢.

الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ ذات يوم : « استحيوا من الله عز وجل حق الحياء » ، قال: قلنا: يا رسول الله إنا نستحى والحمد لله ، قال: « ليس ذاك ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما حوى ، وليحفظ البطن وما وعى ، وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء »[١].

والأمر كما قال عمران ﷺ : فإنه الحياء الممدوح فى كلام النبي ﷺ إنما يريد به الخلق الذى يحث على فعل الجميل ، وترك القبيح ، فأما الضعف والعجز الذى يوجب التقصير فى شىء من حقوق الله أو حقوق عباده ، فليس هو من الحياء ، إنما هو ضعف وخور ، وعجز ومهانة ، والله أعلم[٢].

وبذلك فإن أفعال المؤمن كلها عبارة عن رسالة إلى جميع الناس بأن كل ما يفعله من فضائل ويبتعد عن الرذائل ، ويبين فضل الله تعالى على عباده إنما هو دعوة إلى الله تعالى ، وليس مجرد القول باللسان ، فكل عناصر الإيمان والإسلام والإحسان ، إنما هى خير ، حمله الله تعالى للمؤمنين حتى يكونوا القدوة الصالحة فى هذه الدنيا لسواهم ، وكلما أحسن المسلمون أداءها والتمسك بها والدعوة لها والذود عنها ، كلما أحبهم الناس واستمعوا لهم وقدورهم . وكلما طغى النفاق والبعد عن الفضيلة ، والركض وراء الدنيا ، كلما كانت رسالتنا مشوهة وعبوسة وضالة ومضلة.

القسم الرابع

وسائل الاتصال الجماهيرى (الإعلام)

فى هذا العالم وصلت وسائل الاتصال إلى حد ما كان الإنسان يتصور عطاءها وتنوعها ، واعتبرت وسائل الاتصال الآن ردا قاسيا على الخطاب الإسلامى ؛ لأنها على جملتها ـ مع بعض الاستثناءات ـ تعتبر السنة كفراً ونفاقاً

---

(١) أحمد (١/ ٣٨٧) وضعفه الشيخ شاكر (٣٦٧١) ، والترمذى (٢٤٥٨) .

(٢) راجع من أجل ذلك: جامع العلوم والحكم- ابن رجب الدمشقى ج ١/ ٤٩٦ - ٥٠٥

وضلالا وتزويرا وكذبا ودعوة واضحة لكل بواعث الشر ونزعات الشيطان ، وقد تجاوزت فى عطائها وحبكة وصولها إلى الناس حدا لم يتمكن أحد من الوقوف فى وجه واحدة منها ، إن لم تكن كلها قد تكالبت عليه وسدت عليه كل منفذ ، وجاءت للناس من كل مدخل وأداة ، وانتشرت الوسائل فى الطريق والبيت والعمل وحتى جدران ومداخل المساجد والمعابد والكنائس والبيع ، وقدم لنا الغرب مادة اتصال وإعلام ودعاية وإعلان ومعرفة وعلم وثقافة متنوعة وواسعة ، ولكنها بنيت أساسا على معطياته وأفكاره وطروحاته ومعتقداته ، وكان رد الخطاب الإسلامى الإنكار عموما والهروب من اللقاء وإظهار الضعف والعجز أمام ما يستجد كل يوم من هذا العطاء ، وصم الناس آذانهم وغطوا عيونهم وكموا أفواههم مدهوشين أمام ما يقدم لهم كل يوم من هذا العطاء الحديث الذى أفسد البحر والبر والجو ، ووصلت أجهزة العطاء حدا بعيدا فى التسلل إلى مسامع الناس وعيونهم وأفكارهم .

الحديث عن وسائل الإعلام والاتصال يحتاج فى الواقع إلى أسفار ، ولكننا فى هذا العرض القصير الذى يتعلق بإمكانية استخدام هذه الوسائل لصالح الخطاب الإسلامى ، وحتى يمكن لنا أن نوضح قصدنا فى هذا ، لا بد لنا من الوقوف على حدود الخطاب وإمكانية الاستفادة من هذا الكم الهائل من وسائل الاتصال. ولا يجوز لنا بحال من الأحوال أن نتهرب من قضايا غطت كل المساحات المعدة لمثل هذا العطاء ، وهى كل يوم فى ازدياد ، وكل يوم فى تجديد لا ينتهى ، ولا بد لنا أن نضع بعض الضوابط للحديث عن هذا العرض حتى يمكن أن يكون ما نقدمه فيه الخير وفيه السداد ، ولا يجوز لنا أن نبخل ثانية بإمكانية العرض الواضح لما عندنا من خير عميم يمكن أن يكون وسيلة جيدة لدعم الخطاب الإسلامى وتقويم أدائه .

منهج استخدام الوسائل: أمرنا ألا ندع وسيلة من وسائل الاتصال المشروعة مع الآخرين إلا ونحسن استخدامها ، وقدوتنا فى ذلك دعوة سيدنا نوح عليه السلام التى

استخدم كل وسيلة متاحة عنده للدعوة من جهة ، وامتد به العمر حدا لا نتجاوز معشاره إطلاقا حتى ولو أعطينا طول العمر ، ولم يتح له الحصول على نتائج مرضية من خلال هذا العمل والعمر الطويل ، حتى وصل به الحال حدا أن دعى على قومه الذين لم يستجيبوا له ، فاستجاب ربه بأن أغرق الكافرين ونجى المؤمنين برحمة منه . والمنهج الذى اتبعه سيدنا نوح كان سبيلا للأنبياء والدعاة والصالحين من بعده ، ولو أن قضاياهم اختلفت باختلاف أزمانهم وأمكنتهم وحدود دعواتهم وصفات أقوامهم ومدى ضلالهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ۝١٢ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ۝١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ۝١٤ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ

نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح] .

لم يدع سيدنا نوح وسيلة إعلامية إلا واستخدمها : القول ، الدعوة فى السر والدعوة فى العلن ، والدعوة فى الليل وفى النهار ، والإعلام وكل الوسائل المتاحة له عليه السلام ، وهمه أن يقبلوا دعوته ليجنبهم النار ويدخلهم الجنة.

لكنهم أصروا وصموا آذانهم واستكبروا وعتوا ولم يزدهم دعاء نوح إلا خسارا . وكان جوابهم ألا يدعوا أصناهم ومعبوداتهم ، والصورة فى أماكن أخرى من أخبار نوح بمنتهى الوضوح والشدة وقد ذكرت قصة نوح عليه السلام فى اثنين وعشرين موضعا [1] ، تتحدث كلها عن عودته وثباته وموقف قومه ، وليست قصص الأنبياء الأخرى بمنأى عن جهاد نوح عليه السلام ، فقد قاموا جميعا بما أرسلوا له خير قيام ، عليهم أفضل الصلاة والسلام .

---

(١) انظر كتابنا: نساء فى حياة الأنبياء ـ دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع بالمنصورة ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٤ م ص٢٩ ـ ٣٣ .

هذا ما صنع نوح وهذا ما يقال : عاد يعرضه على ربه ، وهو يقدم حسابه الأخير فى نهاية الأمد الطويل ، وهو يصور الجهد الدائب الذى لا ينقطع ، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ ﴾ [نوح] ولا يمل ولا يفتر ولا ييأس أمام الإعراض والإصرار ، ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝ ﴾ [نوح] فرارا من الداعى إلى الله مصدر الوجود والحياة ، ومصدر النعم والآلاء ، ومصدر الهدى والنور ، وهو لا يطلب أجرا على السماع ولا ضريبة على الاهتداء . الفرار ممن ؟ يدعوهم إلى الله ليغفر لهم ويخلصهم من جريرة الإثم والمعصية والضلال !

فإذا لم يستطيعوا الفرار ؛ لأن الداعى واجههم مواجهة ، وتحين الفرصة ليصل إلى أسماعهم بدعوته ، كرهوا أن يصل صوته إلى أسماعهم ، وكرهوا أن تقع عليه أنظارهم ، وأصروا على الضلال واستكبروا عن الاستجابة لصوت الحق والهدى ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝ ﴾ [نوح] وهى صورة لإصرار الداعية على الدعوة وتحين كل فرصة ليبلغهم إياها ، وإصرارهم على الضلال . تبرز من ثناياها فى وضع الأصابع فى الآذان ، وستر الرؤوس والوجوه بالثياب ، والتعبير يرسم بكلماته صورة العناد الطفولى الكامل ، وهو يقول : إنهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، وآذانهم لا تسع أصابعهم كاملة ، إنما يسدونها بأطراف الأصابع ، ولكنهم يسدونها فى عنف بالغ ، كأنما يحاولون أن يجعلوا أصابعهم كلها فى آذانهم ضمانا لعدم تسرب الصوت إليها بتاتا ! وهى صورة غليظة للإصرار والعناد ، كما أنها صورة بدائية لأطفال البشرية الكبار .

ومع الدأب على الدعوة ، وتحين كل فرصة ، والإصرار على المواجهة : اتبع نوح عليه السلام كل الأساليب فجهر بالدعوة تارة ، ثم زاوج بين الإعلان والإسرار تارة

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾ [نوح] وفى أثناء ذلك كله أطمعهم فى الغفران إذا استغفروا ربهم فهو سبحانه وتعالى غفار الذنوب: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾ [نوح] وأطمعهم فى الرزق الوفير الميسور من أسبابه التى يعرفونها ويرجونها وهى المطر الغزير ، الذى تنبت به الزروع وتسيل منه الأنهار ، كما وعدهم برزقهم الآخر من الذرية التى يحبونها ـ وهى البنين ـ والأموال التى يطلبونها ويعزونها ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح] (١) .

لم يبق عليه السلام وسيلة اتصال مع قومه إلا واستخدمها عند رفع كشف الحساب لله عزوجل بعد أن بعثه لهؤلاء القوم ، والتعابير والأحوال المستخدمة هى ما آل إليه الآن الاتصال الجماهيرى ، ويمكن لنا أن نقول: إن الإعلام الآن أحد أهم ركائز الحضارة الحديثة ، ويعتبر عنصرا أساسيا وقويا فى إدارة الحكم والسياسة وهو الموجه الآن للجماهير لتقبل أو ترفض أى طرح سياسى أو اجتماعى أو فكرى فى العالم الآن . ولمس المسلمون بهذا الداء ولكنهم لم يحسنوا التعامل معه أبدا لأسباب كثيرة جدا يمكن أن نختصر بعضا منها :

١ - التخلف الفكرى والتقنى حيث إن مخترعى الوسائل ومولى الإعلام والعاملين به ليسوا من المسلمين أولا ، والذين عملوا فى هذا المجال كانوا تبعا وصورة ممسوخة من الوافد الجديد ، والهم أكثر الهم أن يقلدوا أو يجاروا الإعلام الغربى المنبت والمنشأ . وحتى يمكن لنا أن نعطى صورة واضحة عن الإعلام ـ الوسائل المستحدثة ـ للاتصال الفكرى والعلمى والحضارى نبين فى

---

(١) سيد قطب: فى ظلال القرآن ، ط٩ ، دار الشروق ، بيروت ١٩٨٠ ، ٦ / ٣٧٠٦ فما بعد ، وراجع أيضا: الجامع لأحكام القرآن : القرطبى ١٨ / ١٩٣ فما بعد ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٩٣.

رسوم أحوال هذا الإعلام ومدى الاستفادة منه فى خطابنا الإسلامى ، أو حتى فى الدعوة إلى الإسلام . ومن خلال ردود الأفعال تجاه هذا الوافد الذى تفاوتت تجاهه هذه الردود من الرفض التام ، وهو أكثر آراء الجيل الماضى وكثير من الجيل الحاضر (الإسلامى) (والعاطفى) وبين القبول الحذر من أجيال ترى فيه وسيلة طيبة يمكن الاستفادة منها بشكل كبير ، إذا أحسن استخدامه وتمت السيطرة عليه ، وبين القبول بكل المعطيات ، بل ومحاولة التقليد أو ختم بعض الأعمال الساقطة بخاتم الإسلام وخاتم العروبة وخاتم الوطنية والقومية .

وفى هذه اللحظة لم يصدر عن مؤتمر إعلامى إسلامى يضم نخبة من المهتمين بشؤون المسلمين أية فتوى تجاه هذا الوافد ، ولعل الأكثر من العلماء بين الخط الأول والثانى مع جدال حول نقاط فرعية الأصل فيها ألا ننتظر الرأى فيها حتى هذه الأيام ، فقد كانت خطورتها أكثر كثيرا من الاستعمار الغربى للعالم الإسلامى فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، والاستعمار الإمبريالى الأمريكى المنتصف الثانى من القرن العشرين ، والتأثير الشيوعى ١٩١٧ ـ ١٩٩٠م ، أو الغزو العلمانى فى هذا القرن والذى سيليه)).

لا نريد أن تحول القضية إلى شباك العلماء ، فهم حتى الآن لم يجدوا الأرضية التى يمكن أن يتحركوا فوقها . رفضوا جميعا من أقطارهم وقبلتهم بلاد (الأعداء) على حذر شديد بين مقيد الحركة والعقل ، وبين مقيد الفكر والفعل ولكننا فى هذه العجالة نسلط الضوء على أحوال هذا الوافد الوقح الذى إذا أغلقت عليه النوافذ اقتحم من الأبواب ، وإن أغلقت عليه الأبواب والنوافذ تسلل من الشقوق وفتحات الهواء .

لم يعد أمامنا كمسلمين (المسلمون فى العالم) والدعاة (حملة دعوة الإسلام) مندوحة من الهروب اللامسؤول أمام هذا الزحف الخطير والعدو الشرس إلا أن نقف هنيهة نعيد حساباتنا ؛ ليكون عندنا ردعا أو بديلا مقبولا عن هذا الإعلام

وبصدد السير فى هذا الدرب لا بد أن تلتقى كل الجهود ، والأفكار ، والأموال والطاقات ، والإخلاص لنكون إعلاما خاصا مقبولا من أهلينا أولا ، وقادرا على هزيمة الإعلام الآخر الذى سيطر تقريبا على جميع أفكارنا وثقافتنا وحتى علومنا ومعارفنا [١] .

بداية الطريق : من أى شىء يتألف الإعلام؟ :

١- يتألف الإعلام من أقسام ثلاثة :

أ- **الإعلام المقروء**: ويحوز على أكبر نسبة فى أنواع الإعلام ، فالإنسان رغم كل مغريات جره عن القراءة ، فما زالت النسبة الأكبر فى قضايا الإعلام عموما والكتاب خصوصا ، وما زالت الوسائل المرتبطة به تقدم الكثير من المعطيات ، والأنواع ، والأشكال والتخصصات ، ومع أن الكمبيوتر حاول أن يبتلع الكتاب فإن الكتاب والصحيفة والإعلام ما زالا يتفاعلان كثيرا فى مساحة العطاء ومساحة الاهتمام ، والجهد والمال المبذولين للإعلام المقروء . وما زالت تنشأ كل يوم دور جديدة للنشر والطباعة والتأليف ، وفى مختلف التخصصات والفنون والآداب والعلوم والطبيعة والتكنولوجيا والصناعة والمخترعات الحديثة ، وما يقارب نصف الإعلام ما زالت تستأثر به وسائل الإعلام المقروءة ، ويشمل الإعلام المقروء الكتاب أولا والصحيفة والمجلة والدورية والنشرة ، ثم الدعاية والإعلان على كبره أوصغره ، وبذلك فإن الإعلام المقروء يستأثر بالجهود البشرية الأكثر ، خاصة أن العلم ما زال يكتب سواء على الورق أو فى الكمبيوتر أو فى أى وسيلة أخرى. قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [العلق] ويأتى بعد ذلك الإعلام المسموع .

---

(١) انظر كتابنا: ملامح الإعلام الإسلامى ، تحت الطبع .

ب - الإعلام المسموع فى الإسلام له دور فاعل وهو الأذان الذى يتردد ليلاً نهاراً بأجمل الأصوات وأعلى الأبنية (المآذن) ويمكن الاستفادة الطيبة فى هذا المضمار وبشكل كبير .

ج - الإعلام المرئى ، وقد تطور حديثا ليكون له شأن واسع ، منه المسرح والسينما والتلفاز ، وهناك أمور مشتركة مرئية ومسموعة كخطبة الجمعة والمواعظ والمحاضرات والندوات .

٢- متطلبات الإعلام :

إن متطلبات الإعلام وضرورياته تأتى لتبرز العمل الإعلامى إلى الوجود ولا بد من تكامل هذه الضرورات ، وإلا فإن الإعلام يبقى مبتورا - بل قل: معدوما - إذا نقص واحد من هؤلاء . هذا التكامل وهذه المتطلبات تختلف من عمل إعلامى إلى آخر ، ففى الوقت الذى لا تكلف نشرة الأخبار بالإعلام المسموع الأشياء الكثيرة ، يتطلب الإعلام المرئى نقل نشرة الأخبار بالصورة من موقع الحدث ، وقد يؤدى الحصول عليها الموت أحيانا إن كانت من قلب المعارك أو من موقع الخطر ، أيا كان: حريقا أو فياضانات أو زلازل أو انهيارات أو تفجر براكين . ويكتفى الإعلام المسموع بصياغة الخبر وصفا أو نقلا عن مصدر آخر . كما أن بعض أعمال السينما لتأتى بفيلم جيد يكلف مليارات الدولارات ، بينما لا يكلف عمل عادى آلافا من الدولارات .

وقد صرح مصطفى العقاد[1] بأن تكاليف عمل أنجز كعمر المختار مثلا توازى خمسين عملا عاديا من أفلام السينما الأمريكية « رعب ، أو الغرب الأمريكى ،

---

(١) مصطفى العقاد - سينمائى - مخرج سورى الأصل عمل فى السينما السياسية فى هوليود وتفوق بعملين اثنين هما: الرسالة ، وعمر المختار ، ولعله يعد لعملين آخرين هما: سقوط غرناطة ، وصلاح الدين الأيوبى كما صرح هو بذلك .

أو رعاة البقر ، أو الخدع السينمائية ..» ولذلك لا بد من تضافر هذه المعطيات جميعا لإنجاز العمل الإسلامى مهما كان . لا بد من العاملين بمختلف اتجاهاتهم (مختصون ـ أو عاديون) ، ولا بد من النص أو المادة الإعلامية مهما صغرت خبرا بسيطا كان أو مسلسلاً من مائة حلقة أو مسرحية أو كتاب أو جهد إعلامى آخر لا بد له من المادة المكتوبة . ثم لا بد من الوسائل التى تعين على إظهار العمل الإعلامى: الديكورات ، المواقع ، دور السينما ، المسارح ، آلات التصوير ، العوامل المساعدة الأخرى ، التى تضفى على العمل الإعلامى زمانه ومكانه ، كجهاز تليفاز ، أو أقمار صناعية ، أو محطات بث ومحطات التقاط ... كل هذه الوسائل لا بد من توفيرها ليظهر العمل الإعلامى عليها ، ويأتى التمويل المالى بعد ذلك ، فليس هناك جهد إعلامى إلا ويحتاج إلى المال ، ولو أن الكثير من الأعمال الإعلامية تدخل فى مجال الاستثمار الذى أصبح مجالا رحبا للربح ، وأحيانا للخسارة ؛ ولذلك نادرا ما نجد فى العالم الإسلامى والعربى إنتاجا بلا تمويل أو دعما حكوميا لضآلة العاملين أو المستثمرين حتى الآن فى مجال الإعلام . (انظر بيان رقم ١) .

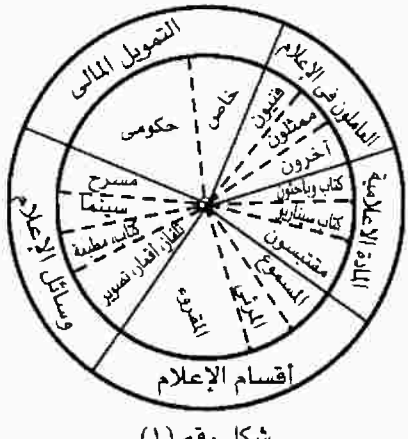

شكل رقم (١)

متطلبات الإعلام واقسامه

٣- الإعلام الغربى :

مما لاشك فيه أن معطيات الإعلام الغربى عموما تقوم على أسس ومبادئ وغايات وأهداف تخدم كلها تفكير الغربيين ومدى عداوتهم للإسلام ، أو تعبيرا عن حالهم وقيمهم وأحوالهم ، وخرج المعتقد الدينى نهائيا من تفكيرهم ، حتى الكنيسة لم تجد لها إلا القليل النادر فى محطات الفضاء أو البرامج العادية أو ما خصص أصلا لخدمة أهداف التبشير الذى له مؤسساته ومؤيدوه ، وانفلت الإعلام الغربى إلى إظهار كل المفاسد التى وصلت أحيانا إلى حد البهيمية . ولا ننكر إطلاقا أن هذه الأمور إنما هى مجريات عادية فى حياتهم ، أما عندنا فإننا نشد أنفسنا والآخرين إلى قيم الدين . والإعلام المكتوب هو الوحيد الذى حوى العلوم والمعارف وحقائقها ودوافعها وإنجازاتها وتطوراتها ونظرياتها ، أما الفلسفة وعلوم الاجتماع وحتى علوم السياسة والاقتصاد والفن والآداب كلها سلكت منحى أن ما كان فى حياتهم وقضاياهم فهو ليس فى حياتنا وقضايانا ولا اهتماماتنا .

إن الغرب فى موقع سيادة العالم ، وتفكيره هو استمرار السيادة أولا وسلوك العالم مسلك الهوى والنفس ، فلم يعد هناك شىء اسمه الحياء أو القيم .. فقد غزت الكتب والمجلات والأفلام وبرامج الإذاعة والتليفاز عقول الناس جميعا فاستهانوا بكل هذه القيم وهذا الحياء ، وانعكس كل ذلك على وسائل إعلامهم ومع التطور الهائل فى قضايا الإعلام فقد دخل علينا هذا الإنتاج بكل قذاراته ووقاحته وبعده عن القيم الإنسانية .

وفى الجانب الآخر فإن فى الإعلام الغربى جانبا مشرقا نوعا ما ، يمكن أن يستفاد منه ، فهناك كم ضخم من الإنتاج الإعلامى العلمى ، والمنجزات العلمية والبحث وراء المجهول ، والاكتشافات فى الطبيعة والبحار والفلك ، وعلم الحيوان والنبات ، والإنجازات الطبية ، وكذلك إنجازات فى التاريخ

والحضارة ومواضيع شتى بعيدة عن السفاسف الأخرى التى طغت على الإعلام الغربى عموما كما أن فيه جانبا مقبولا بعيدا عن الانحطاط يتم الاستفادة منه برأى المختصين من نظريات وفلسفات وجوانب فيها بعض الفائدة ؛ ولذلك فقد خصصنا في الشكل رقم (٢) .

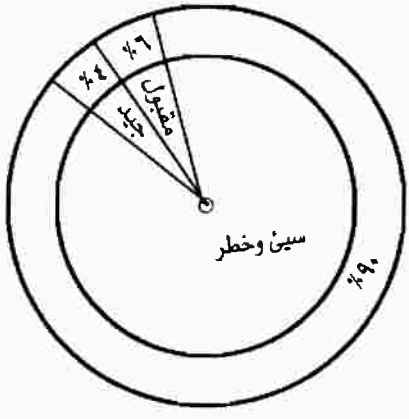

شكل رقم (٢)

واقع الإعلام الغربى بجميع جوانبه ومدى خطورته على الخطاب الإسلامى

بعض هذه الجوانب حتي يمكن الإستفاده منها وبالحدود التي تجعلنا بعيدين نوعا ما عن السيئ من الأعمال الإعلامية على عمومها .

٤- الإعلام الحكومى الرسمى العربى والإسلامى :

احتكرت حكومات العالم الإسلامى وسائل الإعلام تقريبا ، وبسطت سلطانها وسيطرتها على كل وسيلة مهما كانت على الإذاعات والتليفاز ، وراقبت المسرح والسينما ، وكتبت خطبة الجمعة وراقبت الكتاب ، ولم تعط إلا متنفسا بسيطا جدا للناس والذى يعرف بالقطاع الخاص ، ونظرا للتجزئة التى منى بها المسلمون ومزقوا شر ممزق من جهة ، وسيطرة العملاء والمبهورين بالحضارة الغربية على مقدرات الحكم فى هذه الدول ، وأحاطتهم بمشاكل تخوفهم بها كلما أرادوا أن يتحرروا من رقبة السيطرة والهيمنة الجديدة ولأى

نظام سياسى كان ، أو أية أيديولوجية مطروحة على الساحة ، فقد فرض على الإعلام فى هذه الأقطار التقليد ؛ لأن المسلمين لم يملكوا الأداة ولا الوسيلة ولا المخترعات ، وإنما اشتروها جاهزة ، وأعطيت لهم لتكون أبواقا وأصواتا تنبح ليلا ونهارا بمدحهم وكيل الفضائل والخيرات عليهم ، ويعلمونهم .

ويعلم أيضا الذين نصبوهم وسدوا بهم هذه الثغرات بأنهم متخلفون عقليا وذهنيا وفكريا ، ولكن حولوا هذه الصفات إلى أن يكونوا ـ ومن خلال أجهزة الإعلام المختلفة ـ القدوة والفضل والخير وبأن الله قد خلقهم مستثنين من خلقه بكل ما وهبهم من الإمكانات والفضائل ، فكانت أجهزة الإعلام حولت أكثرها لهذا الباب ، تاركة الأبواب الأخرى لتسد بالإنتاج المفروض عليهم أو الذى سمح بتداوله من إنتاجهم الذى يعتمد التقليد الأعمى من جهة ونشر الحضارة الغربية بكل مقوماتها فى المجتمعات العربية المسلمة ، وترك بعض الهامش للحديث عن مقومات الدولة والتأقلم والتقوقع والتمزق الذى فرض على هذه الأمة فكانت أكثر من اثنتين وعشرون دولة عربية ، وأربع وستين دولة إسلامية ، وثلث المسلمين الآخرين يحيون تحت ظل ديانات ومعتقدات أخرى كأقليات منقطعين تماما عن ثقافتهم ودينهم ومعتقداتهم .

وبذلك فإن عطاء الإعلام الرسمى العربى الإسلامى عطاء بعيد جدا عن قيم الأمة ودينها وأخلاقها ، ووصل الحال ببعض الدول التى تعطى شكل الإعلام الغربى برمته دون رقابة أو خوف من ضمير أو دين أو خوف أولا وأخيرا من الله تعالى جلت قدرته ، فانجرفت انجرافا عجيبا لا يمكن أن يشاهد من أى مسلم به ذرة من دين أو خوف من الله . وتتقرب مواقع أخرى من الإعلام الغربى الذى سبق وصفه وبشكل ملحوظ بالتخلى التدريجى عن كل قيم الإسلام وحدوده.

ولا ننسى أن الأداء الفنى ما زال فى وضع متخلف جدا عن أداء الإعلام

الغربى فى جميع مستوياته تقريبا ؛ ولذلك يبقى المقلد غير المقلد . ولدى الإعلام الغربى طفرات تطور سريعة جدا تعود للإنجازات التكنولوجية المتطورة فى هذا المضمار والاختراع والإبداع الدائم ، أما بالنسبة للإعلام المقلد فإنه يبدأ دائما من حيث بدأ الآخرون ولا يبدأ من حيث انتهوا . هناك بعض التطور فى هذا المضمار لكنه بقى محدودا جدا رغم وجود الرغبة لدى وزراء الإعلام بمجارات الإنجازات الحديثة ، وللميزانيات الهائلة التى تنفقها الدول على هذه الأعمال وفى هذه المجالات .

٥- أحوال الإعلام الإسلامى :

واقع الإعلام الإسلامى (أو الخطاب الجماهيرى) أو (وسائل الاتصال الجماهيرى) فى وضع متخلف جدا ، أو لنقل: إنه شبه معدوم فى جوانب وربما يكون متفوقا فى جوانب أخرى والأمر تحكمه ظروف كثيرة منها :

١- الشرع الإسلامى الذى يمنع كثيرا من المعطيات فى واقع الإعلام الحالى العالمى أو العربى الإسلامى الرسمى ، لمخالفته الواضحة للإسلام ولمبادئ الإسلام .

٢- التمويل المالى الذى يفتقد له الإعلام ورغم كثرة رؤوس الأموال الإسلامية ، فإن القليل جدا وظف أو استثمر فى مجال الإعلام .

٣- الحرب الضروس التى شنتها الحكومات الإسلامية والعربية على دعاة الإسلام من جهة وتبنيها الاتجاه المضاد لهذا الإعلام .

٤- ضعف الحركات الإسلامية وتشتت دعاتها وتنظيماتها فى مختلف أصقاع العالم .

٥- عدم وجود حكومة إسلامية تضع فى خططها النهوض بالإعلام الإسلامى أو التأكيد على ضرورة مجاراته للإعلام العالمى أو جعله بديلا عنه .

٦- الجهود الفردية فى هذا المضمار وعدم وجود شركات كبرى تتبنى مثل هذه الأفكار .

٧- قلة الفنيين فى الإعلام والمختصين به من دعاة الإسلام ، وعزوف الشباب المسلم عن تعلم الإعلام للملابسات الكثيرة التى قد توقعهم فى المحرمات .

كل هذا وأمور أخرى كثيرة جعلت الإعلام الإسلامى فى موقف ضعيف جدا حيال ما فى العالم من حولنا ، وحيال ما يقدمه العالم فى هذا المضمار . انظر شكل رقم (٣) .

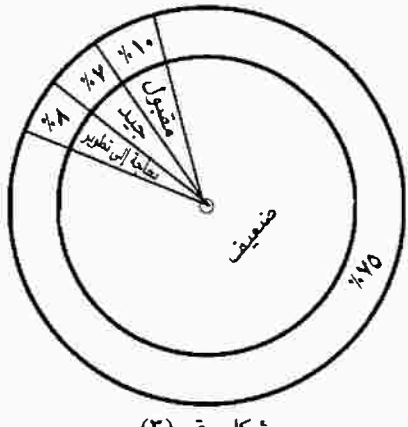

شكل رقم (٣)

واقع الإعلام الإسلامى المتعلق بالخطاب الإسلامى

مع هذا فإن هناك بعض الإنتاج الإعلامى الإسلامى الجيد والمبدع فى قطاعات معينة والمعدوم تماما فى قطاعات أخرى . (انظر شكل رقم ٤) .

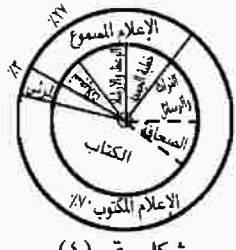

شكل رقم (٤)

مجالات الإعلام الإسلامى

٦- مجالات الإعلام الإسلامى :

لم يدع المسلمون وأبناء الحركات الإسلامية خاصة مجالا متاحا من مجالات الإعلام إلا وسلكوه ، وقد بذل هؤلاء جهودا مضنية وجبارة فى هذا المجال ، وقد قدم علماء الإسلام فى الوقت الحاضر وخاصة أبناء الدعوة الإسلامية عطاء طيبا تجلى فى الكتاب أكثر من غيره ، فعدا عن الجهد الطيب المبذول فى التراث الإسلامى وتحقيق المخطوطات ونشر هذا التراث ، فإن كثيرا من علماء العصر قد دخلوا فى مجال الاجتهاد والبعض قد نال درجة الإجماع فى الوقت الحاضر .

ووقف المسلمون أمام الزحف العقدى الذى انهال على المسلمين من كل جانب ومن كل اتجاه موقفا موفقا وجيدا ، وفندوا آراء أصحاب العقائد والأيديولوجيات وخاصة العلمانيين الذين أرادوا الخروج كلية من حدود الدين والطعن فيه وتشويه صورته كما أن الكثيرين وقفوا من الاستشراق والتبشير وآراء التشكيك موقفا رائعا . ونبغ العديد من هؤلاء الذين جددوا الدين لأهل هذا العصر ، وكان من نتائج أعمالهم هذه الصحوة المباركة التى بدأت منذ منتصف القرن الحالى ، وما زالت تسير بشكل جيد ومتنام على الرغم من عدم وجود دول تحمى هذه الصحوة وترشدها . باعتبار أن الكتاب كان المجال الأوسع ، فإنه طغى من غير شك على كل الآراء الأخرى التى انهزمت أمام الرأى الإسلامى المعاصر .

الصحافة الإسلامية متواضعة جدا ، ومع أنها لها أثر واضح فى الخطاب الإسلامى إلا أنها لم تكن على الوجه المطلوب من جهة ، وليست مجارية للتطور الهائل فى عالم الصحافة من جهة أخرى . ولقد أشرنا إلى ذلك ببحثنا فى هذا الكتاب عن الرواد الأوائل فى مجال الصحافة الإسلامية وأسماء هذه الصحف ولقد لاقت الصحافة الإسلامية الكثير من المقاومة والتعنت والمنع ، وهناك

أسماء كثيرة فى عالم المسلمين لصحف أغلقت وعطلت وهجرت ، وبعضها استمر على حياء أو على ضعف شديد ، ومع هذا فللصحافة دورها الكبير فى إيصال الخطاب الإسلامى إلى ما يسعى المسلمون ليوصلوه إليهم . وبقى بعد ذلك النشرات الدورية والإعلانات والبيانات التى تصدر باستمرار عن أصحاب الخطاب الإسلامى الذى يبرز بين الحين والآخر (المنشور ، البيان ، الإعلان) أو أى صيغة أخرى لهذا النوع من الخطاب.

أما عن الإسلام المسموع ، فإن خطب الجمعة ما زالت البيان الأول سواء أكان مكتوبا أم مرتجلا ، وما زالت خطب الجمع والخطب الأخرى التى سبق شرحها مفصلا ، ويأتى بالمرحلة الثانية تلك المواعظ والمحاضرات التى تسمع أو تنقل بواسطة (الكاسيت) ، وهذه المواعظ والأحاديث الكثيرة التى تلقى فى المساجد عادة أو محاضرات عامة أو محاضرات خاصة أو خواطر أو أى نوع يلقيه المسلمون بين الحين والآخر ، وفى كل المناسبات الدينية وغير الدينية ، ويأتى بعد ذلك الكاسيت الذى برع المسلمون باستخدامه ونقله وتدويله وتطويره وتوزيعه وتنويعه ، ويعتبر من مجالات الخطاب الإسلامى المعاصر الذى له دور فاعل فى نشر الدعوة ، ونقل الكثير من محتويات الخطاب الإسلامى للناس جميعا ، واستعيض عن الغناء والموسيقى بالأناشيد الإسلامية لمختلف المستويات ، وبذلك فقد تمكن المسلمون من الاستفادة من ذلك وبشكل كبير.

ويبقى الإعلام المرئى آخر المطاف الذى لم يتدخل به الخطاب الإسلامى تدخل المستفيد منه ، وما ذلك إلا لوجود بعض الموانع الشرعية مما نرى فى بذخ وتبذل الإعلام المرئى الغربى والعربى ، ولم يدخل ذلك فى حساب المسلمين للكثير من الاعتبارات الأخرى مثل عدم وجود المختصين والفنيين والتمويل المالى لاستخراج أعمال تليق بالخطاب الإسلامى ، وتكون ذات تأثير مباشر بالناس ، ومع هذا فقد خطت بعض الأعمال خطوات جيدة فى هذا المضمار أعطت الإشارة لإمكانية العمل المرئى ، البعيد عن السفاسف وعن التوافه وعن

إثارة الغرائز والجنس والأمور المختلفة الأخرى ، ونرجو أن نجد خطوات فى هذا المضمار ضمن إطار الشرع الإسلامى الذى يجب أن يسخر لخدمة هذا الدين ، ولتقديمه إلى الناس بديلا عما امتلأت به محطات الفضاء ودور السينما وقاعات المسارح من أعمال فى بعضها بعض الإبداع الفنى الذى يخدم مجال أعداء الإسلام ومروجى كلام التخلف والانحطاط على المسلمين وأعمالهم التى يدعون عملها .

يجب علينا تحديد الأمور الضرورية لعمل الإعلام الإسلامى . فأى عمل من أعمال الإعلام مهما كان صغيرا أو كبيرا يجب أن يحقق خدمة أهداف خمسة :

الأول: الدين ، الثانى: العقل ، الثالث: النفس الإنسانية ، الرابع: الأمة ، الخامس: الأرض (بلاد المسلمين) التى ترتبط بها خيراتهم ومعاشهم.

وإذا لم يحقق العمل الإعلامى الخدمة لهذا القضايا مجتمعة أو منفردة فإنه لا يمكن أن نطلق عليه عملا إعلاميا إسلاميا ، إذ إن الأعمال التى تبتعد عن خدمة واحدة أو كل هؤلاء تعمل ضمن أهداف أخرى ، أو تقدم خدمة للأهداف البعيدة عن الإسلام ، أو التى تؤدى إلى الطعن فى أهداف الإسلام وغاياته. والتفصيل فى هذا قد يكون فى ثنايا هذا المقال أو المقالات الأخرى التى ستأتى بعده .

وعلى العموم يجب أن نؤكد فى هذه العجالة أن العمل الإسلامى الذى يقدم الآن ضمن ردود الفعل أو ضمن المنهج التجارى ، أو خدمة مبدأ آخر ، إنما هو عمل قد ينتفع به أو لا ينتفع من عمله شىء ، وقد يكون ضرره أكثر من نفعه ، وحس المسلم تجاه هذه الأعمال دقيق جدا لدرجة أن الدعاة يعرفون المغزى من هذا العمل ويقيمونه بحس إيمانى سليم . ومع هذا فإن الاستفادة مما يمكن الاستفادة منه هو أمر مشروع ، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها [١] .

---

(١) راجع كتابنا: ملامح الإعلام الإسلامى ، تحت الطبع .

كيف ننقى الأعمال الإعلامية من الشوائب ، وكيف نقدم عملا إسلاميا يخدم تلك الأهداف ؟ هذا سؤال قد فرض نفسه ، ومن الصعب الإجابة عليه فى وسط هذا الزخم المتلاطم من أمواج الإنتاج الإعلامى الردىء . إن الإجابة عليه تحتاج إلى مجلدات ودراسات وسبل وتجارب كثيرة ، ولا يجاب عليه لمجرد أن خطر فى بال أى رجل عادى أو عالم أو باحث خاطر ، ثم ينقضى الأمر ويبقى الإعلام الإسلامى غائبا عن الوجود ، والإعلام الردىء يملأ الكون ويزداد سوءا يوما بعد يوم . ولكنى وفى هذه العجالة أيضا أحب أن أدلى بدلوى ؛ لأنى أريد للخطاب الإسلامى الذى قدمت قلمى للكتابة فيه ، أن يكون واضحا جليا قادرا على التأثير فى المخاطبين من أى شكل كانوا.

إن نهرا فيه الكثير من الطين والطمى والشوائب والأكدار والأوساخ والمخلفات الكثيرة مما تحمله الأنهار أحيانا يذهب ليصب فى فى البحر المحيط ، أو أن ماءه يؤخذ على طرفى مجراه للاستفادة منه لسقى الأرض ورى الزروع ، وهذا أمر طبيعى فى هذه الطبيعة ، ومنذ أن وعى الإنسان الاستفادة من الماء إلى يوم الوقت المعلوم.

وإذا أراد أهل مصر أو قرية أو مدينة أن يستفيدوا من هذه المياه لشرب الناس وإرواء النفوس ، فإنهم يلجؤون عادة إلى حفر قنوات وتهيئة مصاف ودراسة محتويات الماء ليتخلصوا منها وليشربوا هم الماء الزلال . ثم يأخذون قدرا من الماء ويجرونه إلى هذه المصافى المعروفة باللغات الأجنبية بـ (الفلتر) ، ويمررون الماء خلاله فتخلص هذه المصافى الماء من كثير من الشوائب . وحتى إذا كان الماء تكثر فيه المحاليل الضارة ، فإنهم يلجؤون إلى معالجتها بالكيماويات والتفاعلات التى ما عدم عقل الإنسان اختراعها يوما من الأيام حتى يحصلوا على الماء الزلال الذى يقيم أود حياتهم ويرويهم من عطشهم ويبقيهم فى مدنهم وقراهم ، وكلما ازدادت حاجتهم إلى ماء زلال أكثر كلما حولوا ماء

النهر أكثر ، حتى تمر الأيام فيتحول النهر كله إلى المعالجة لسد حاجة تكاثر البشر.

إن الدين الإسلامى واضح فى التعامل مع جميع المعطيات فى هذه الدنيا ، وإن سبق الأقدمون وقصر المحدثون ، فهو فى الواقع لعدم الاهتمام الزائد من جهة ، ولانشغال علماء العصر بالبحث عن مقر لهم ودار أمن وساعة خلاص من العذاب الذى وقعوا فيه سواء داخل سجونهم أو خارجها ، ولذلك فقد قل العطاء وندر ، وعدنا نبحث فى فقه الأقدمين عن حلول لمشاكل الحاضرين فلا نجد أحيانا ، فنقف حيارى ونعزى ذلك إلى فقر وتخلف هذا الفقه ، وعدم القدرة على الاستنباط ، حتى إن بعضا من فقهاء المذاهب ـ عافاهم الله وهداهم ـ قد طرحوا هذا الفقه كله وأرادوا العودة إلى مجتمع المدينة ومكة فى عهد النبوة لتطبيق أحواله على حالنا . ليس من مجرى أحاديث الرسول ﷺ ، ولكن لنوع الحياة التى يريدون أن نعود عليها ونطرح اجتهاد علماء جدوا واجتهدوا أربعة عشر قرنا ، وأغمضوا عيونهم عن مجريات الواقع الذى نحن فيه.

إذًا فنحن إذا أردنا أن نتعامل مع الإعلام الحالى فعلينا تحويل أجزاء منه إلى المصافى ، والمصافى: هى هيئات الرقابة الشرعية التى تحول إليها الأعمال الإعلامية المقررة ، فتقوم هى بإقرارها أو رفضها أو تعديلها . فالحاجة إذا هى هيئة الرقابة الشرعية للأعمال الفنية أو الإعلامية .

إن الدول قد عينت هيئات رقابية غير ملتزمة ووضعت لها شروطا وحدودا ، وهى نابعة من الخلفية العرفية والحياتية وليس من الشريعة ، والمهم أن يقوم علماء أكفاء على تنقية هذه المياه وإقرارها للتعامل معها ، ومن ضمن الأهداف التى تخدم القضايا الخمس التى ذكرناها . لقد فعلتها البنوك فتحولت إلى بنوك إسلامية ، وإن هذه القضايا ليست بهذه الخطورة التى جعلت الجميع يخافونها كأنها طاعون أو وباء أو مرض كاسح ، وغطينا رؤوسنا بالتراب وتركناها تمر

من خلف ظهورنا ليراها أبناؤنا والأجيال الحديثة الجديدة ويتعاملون معها بل ويتأثرون بها . لقد كانت حقبة الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من هذا القرن صراعا حادا جدا بين الجيلين الآباء والمحافظين والأبناء التقدميين حول السينما ، وتحول الصراع بعد ذلك حول التليفاز وحول أجهزة الالتقاط وأجهزة البث وأجهزة التصوير وما زال هذا الصراع يقاوم بإغماض العيون فقط .

نحن بحاجة ولو كان العمل ضمن القطاع الخاص وهو المرجو الآن ؛ لأن التعامل مع الحكومات أمر غير ناجح فى هذا العصر على الأقل ، نظرا لانقلاب الحكام جميعا على الدعوة الإسلامية ، وتبنيها نهجا للنفاق أقرب منه للحقيقة واصطياد بعض الضعفاء من المتدينين والعلماء ليقدموا لها الفتاوى الرخيصة والمغالطة والخارجة عن الإسلام ، إذا التعامل مع القطاع الخاص كما فعلت البنوك بتحويل معاملاتها إلى مجال الاقتصاد الإسلامى ، فيمكن للمستثمرين فى مجال الإعلام وأى نوع كان أن يستفيدوا من تجارب البنوك التى طرحت الربا وبحثت عن الربح الحلال ، وأن يستخلصوا أعمالا فنية وإعلامية قادرة على الأقل بتحويل الأنظار عن الإعلام الآخر الذى تحدثنا عن حدوده وأبعاده.

المادة الإعلامية متوفرة والحمد لله عندنا بشكل نبع لا ينضب من القرآن الكريم ومن أحاديث الرسول ﷺ ، ومن التاريخ الإسلامى الناصع ، من سير الأقدمين والمحدثين ، ومن تصوير القيم ، والإيمان والدعوة إلى الله بشكل كبير .. والأسفار الكثيرة التى بين أيدينا تحتاج إلى أيد تمتد إليها لتأخذ منها وتحولها إلى مسرحيات أو أفلام أو مسلسلات أو قصص أو مدونات وبشكل كبير .

المال متوفر عند الإقدام على أعمال يرغب منها أصحابها مرضاة الله والاستثمار أيضا فى مجال الإعلام .

الفنيون قليلون لكن يمكن الاستفادة من الطاقات الأخرى لحين الاستطاعة

أن نكون كادرا فنيا للتشغيل والتمثيل والإخراج والإنتاج . وهؤلاء يقبلون العمل ويتقنونه أحيانا ، وتجربة عمر المختار وغيرها واضحة فى هذا المجال .

الأجهزة متوفرة ويمكن شراؤها ؛ لأنها معروضة وبشكل كبير وبمختلف الأشكال والألوان والأحجام والأنواع ، يبقى فقط المؤمنون الذين يمكن أن يقفوا فى وجه هذا العدو الزاحف وتقديم البدائل عنه ، وإلا فما معنى أن نغمض أعيننا ونصم آذاننا أمام عدو اقتحم علينا مخادعنا وثبت أركانه فى كل زاوية ومكان من بيوتنا أولا وقبل بيوت غيرنا .

لقد أعطينا هذا البحث زيادة بالسرد لأهميته ؛ ولأننا بحاجه إلى حسن استخدامه فى خطابنا الإسلامى المعاصر .